



فاطمة الزهراء والفاطميون

عباس محمود العقاد

طبعة جديدة منقحة



اسم الكتاب: فاطمة الزهراء والفاطميون
المؤلف: عباس محمود العقاد
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر: الطبعة الخامسة - سبتمبر 2006
رقم الإيداع: 2003 / 16083
التقييم الدولي: ISBN 977-14-2413-0

الإدارة العامة للنشر: 21 بن أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 02)3466434 - 02)3472864 فاكس: 02)3462576 ص.ب: 21 إمامة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmiser.com

المطبع: 01 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 02) 6330287 - 02) 6330288 - فاكس: 02) 6330290
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmiser.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 بن كامل صدقي - الفيحة -
القاهرة - ص.ب: 94 الفيحة - القاهرة
ت: 02) 5909827 - 02) 5908895 - فاكس: 02) 5909395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08001226221
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmiser.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 406 طريق الحرية (ورشدي)
ت: 03) 5462090
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام - علف
ت: 058) 2259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmiser.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1978

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

تمهيد

ترد الإشارة إلى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية، ونعول عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار. ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية.

وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعقيدة^(١) النبوية على التخصيص.. ومن أمثالنا في الصعيد الأعلى ما معناه أن البيت إذا احتاج إلى الخبز فهو أولى به من الجامع.

ولدت لأبوين من أهل السنة: أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة، وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهباً إلى المسجد القريب أو عائداً منه إلى داره.

وفتحت أذنى كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله، فمولد النبي حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها؛ لأننا نحن الفائزون بالخدمة فيها. وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار؛ لأنها أسماء إخوتى أجمعين: محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والظاهر ويس، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة، واسمى أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير الأسبق: عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى؛ لأننى ولدت قبل ولايته، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب «حلمى» جرياً على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة، وبقيت منسوباً إلى اسم «محمود» وهو كذلك من أسماء النبي، ولم يكن لأبى إخوة، وإنما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم زينب، وأولادهن ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة.

(١) العقيدة بكسر العين، تسال الرجل وأقرباؤه الأذنون.

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة؛ لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية، ولكنه كان في بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية، فاستفدت منه كثيرًا في دراسة تاريخ الإسلام.

استفدت منه أنني كنت شديد التريث في سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التي كانت تقوم على إنكار حق، أو إنكار فضل؛ أو إنكار نسب، أو إنكار ما من ضروب الإنكار التي تمس تواريخ أهل البيت النبوي من بعيد أو قريب.. ولم أستفد منه بحمد الله كراهية أحد ذي حق أو ذي فضل؛ لأن قداسة العظمة الإنسانية تحجب عندي جميع هذه الصغائر التي تمس تواريخ العظماء أجمعين، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتي الباكرة عصمني بحمد الله من غوائل^(١) هذا الصُّغار^(٢)..

ومن أثر هذه الوراثة في ذهني أنني لم أصدق ما كان في حكم الواقع المقرر عن سياسة الإمام، وأنه لم يكن له في السياسة نصيب، فيحثتها بحث الإشاعات ولم أعطها من بادئ الرأي شأنًا أكبر من الإشاعات التي تسرى على الأفواه بغير دليل، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمآرب في سياسة الحاكم الغالب، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين..

* * *

ومن أثر هذه الوراثة في ذهني أنني قارنت سير العظماء الإسلاميين و«النبويين» لأرضى ذهني، ولم يقنعني أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهني شواهدا وآياتها، فعظماء الإسلام عندي أعلام إنسانية باذخة تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم، وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام.

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام في حياة الزهراء، فإنها - سلام الله عليها - قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد، أو تكتب لها ترجمة لأنها

(١) غوائل: جمع غائلة وهي الداهية والشر المهلك.

(٢) الصُّغار: بفتح الصاد: الذل والضم.

زوج علي، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة؛ ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي نتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير.

* * *

وهذا الذي قصدت إليه بكتابة هذه السيرة، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين إلى فاطمة، وعلى قلة الأخبار التي حفظت عن شخص فاطمة - عليها السلام - أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكنني أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها.

ونعود إلى الوراة فنقول إن أول ما نضيفه إلى بيان قررة اليقين، أو بيان القوة الإيمانية في نفس الزهراء، أنها ورثتها من أم وأب، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث، ولكنه إذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت أصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هي، وفيما توارثه الأعقاب من بعدها، وما أخلده من ميراث!

* * *



القسم الأول

فاطمة الزهراء

- أم الزهراء ..
- نشأتها ..
- زواجها ..
- بلاغتها ..
- هي الحياة العامة ..
- وفاتها ..
- شخصية الزهراء ..
- الذرية الفاطمية ..





أم الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلاً من أخبار السيدة خديجة - أم الزهراء - رضي الله عنهما، ولكن هذا القليل كافٍ للتعريف بها، وبما يمكن أن تورثه بنيتها من الخلائق والسجايا؛ لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدنا الإفاضة في الأخبار إلا في التفصيل.

ومن جملة الأخبار القليلة التي حفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة، وأنها - رضي الله عنها - كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية: عاطفة المحبة الزوجية، وعاطفة الأمومة، وعاطفة الإيمان..

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش؛ لأنها جمعت إلى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة، وأهلها جميعاً لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم إلا كان علماً في الحكمة والدراية أو في الشجاعة والشم، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام.

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة، فهي فاطمة بنت هالة التي ينتهي نسبها كذلك إلى لؤي بن غالب، وهالة بنت قلابة التي ينتهي نسبها إلى ذلك الجد الأعلى، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم، فكانت قافلتها إلى الشام تعول قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام.

وأهم من هذا جميعه بالنسبة إلى زوجة نبي، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة، أنها كانت مفطورة على التدين ورائة وتربية..

فأبوها خويلد هو الذي نازع تبعاً الآخر حين أراد أن يحتل الركن الأسود معه إلى اليمن، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك^(١) من مناسك دينه،

(١) المنسك: الموضع يأتيه الإنسان ويتردد إليه في خير كان أو غيره، ومناسك الحج عباداته.

وقال السهيلي في الروض الأنف: «إن تَبَعًا رُوعَ في منامه ترويعًا شديدًا حتى ترك ذلك وانصرف عنه» فلا يبعد أن روعة خويطد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الإلهي إذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التَّبَع فتراءى له من المخوفات في منامه ما أرهبه وثناه عن عمله.

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذي رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبي عليه السلام عند مفاجأته بالرحى ما أزعجها، فركبت إلى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفته ينتفع بها صاحبها؛ إذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون بأمرهم إلى كاهن أو كنيسة، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك في عبادة الأصنام وتجنح به إلى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة. ويُنسب إليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبي الصلت، ويروى كتاب السيرة أنه استغرب علم السيدة خديجة باسم جهريل حين ذكرته له، وقال لها: «إنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه».

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة، لا يعني أن نستقصيها؛ لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشغف بمدرسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التي ورثتها الأسرة، من كان منهم على الجاهلية، ومن تحول عنها إلى النصرانية. ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى أنها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والإسرائيلية؛ لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان..

وقد روى عنها كلام قالته للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحي فعاد إليها، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي» فكان كلامها - الذي أرادت أن تسري به عنه وتثبت به جنانه - آية على العلم بلباب الدين علما يُستكثر على الناشئين في أديان الجاهلية، فإن الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة وسحرا، ولكنها أدركت

من حقيقة الدين ما لا يدركه عامة قومها، فعلمت أنه فضيلة وأن ابنى الحدير أن يُدب له هو ارجل ادى تسم بالفضيلة، وقامت للسبى وقد آمنت أنه وحى وليس بعارض من عوارض الحنة «كلا» والله ما يخربك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل^(١)، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على برائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة».

علامات النبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ولو لا أنها عرفت من أبناء عمومته من كس يفهم النبوة هذا الفهم لم كانت هذه علاماتها لتصدق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم

وهى على هذا طبيعة مميعة، وليست طبيعة مسابقة إلى السماع والتقليد، مما نقل عنها أنها طلبت إلى ابنى عليه لسلام أن يخبرها إذا جاءه خبرين، ولما أخبرها قالت له «قم فاحلس على مخدئ اليسرى» فعص، فقال «هل تراه؟» قال «نعم» قالت «فتحول إلى مخدئ اليمينى» وسألت «هل تراه؟» قال «نعم» فألقب خمارها^(٢) وسأله، فقال «الآن لا أراه» قالت «يا بن العم أذهب وأبشر، فإنه ملك وما هو بشيطان»

وهذا الاختير غصة ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى ولا غرابة فيه عند «مسلم وعند غير لمسلم فى العصر الحاضر وإن البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر إلى جسد الأنثى فى وقت واحد، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة، فلا موجب إذن لشك لمتشككين من المتجادلين فى صحة هذه الأحاديث

وقد رزقت هذه اسيدة البارة صياحة الوحى مع ما رزقته من الخلق الحمير والحسب الأثين^(٣) وأمال الخرين، وصدق من قل إن السعادة لا تتم، فإن هذه السيدة التى تم لها عاية ما تتمه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة فى حياتها الروحية، فإنها تروحت فى صباه برجل من هلمات^(٤) مكة هو أبو هالة بن رزاره

(١) الكل الثقيل لا خبر فيه

(٢) الخمار بكسر الخاء الضيف وهو ما تغطى به المرأة رأسها

(٣) الأثين القديم المؤصل

(٤) هلمات الهامة الرأس من كل شىء

فمات ولها منه ولد صغير سُمي باسم هند (لعله دوعا لأبي الحسد) وهو الذي تربي مع السيدة فاطمة وقتل في جيش الإمام في وقعة الجمل عسى أرحح لأقوال، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبي رواه سبطه احسن عليهما صلوات الله.

ثم جرى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخرومي، واختلفوا في أي زوجها كان الأول ولكنه على كل حال روح لم يكتب له الدوم، وقد أعرست عن الزواج بعد هدير الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل الذي أصبحت بفصله علما من أعلام النساء في التاريخ ولا شيء أدنى على رجاحه لبها من أباتها^(١) في اختيار زوجها، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر إليها فيما تحتار

أم كيف اتصل النبي عليه السلام بالحمل في تحارتها فتكاد الأفعال تتفق على أنه كان بمشورة من عمه أبي طالب، وبأب طالب قال له في سنة من أسنين «يا ابن أخي أبارح لا مال لي وقد اشتد علينا الرمان، وهذه غير قومك قد حصر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعه رجالا من قومك في غيرها فلو جئتها فعرست نفسك عليها لأسرعت إليك» وقد تردد النبي في مهاجرتها بهذا الطالب فذهب إليها أبو طالب، فأجابته عسى رضى وكرامة، وقالت له «لو سألت ذلك لبعيد بعيس لأحبائك، فكيف وقد سألت لقريب حبيب؟»

وفد سامر النبي إلى الشام وياع واشترى وبيع لها أصعاف ما كانت تبيع في كل عام، وأعجبها منه أنه حين عاد من السفر وكل إلى علامها ميسرة - الذي كان بصحبته - أن يسبقه يبشره بعودة المافلة وومرة كسبه، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحقيقته، وأحبته وودت لو يحطبها مع الخطاب وعرضت له بذلك في حديث أقرب إلى التلميح منه إلى التصريح

وأحجم النبي حياء وأحسب من عن النصريح، ثم أوعزت إلى صديقة لها هي نفيسة بنت منية - أن تشجعه على الخطبة، فسألته نفيسة ذات يوم «ما يمنعك أن تتزوج؟» قال «قلّة المال» قالت «فإن كُفيت ودعيت إلى المال والحمال والكفاءة؟» قال «ومن تكون؟» قالت: «خديجة» قال «فإنهبي فاطميتها»

وروى الزهري صاحب أقدم السير أن «رسول الله ﷺ قال شريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة هم ملتحدت عبد خديجة، وكانت تكرمهما

(١) أباتها الحسم، والرفق، والنوادة

وتتحققهما، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستبشرة^١ - هي الكاهنة - فقالت له حئت خاطباً بآ محمد؟ فقال «كلا» فقالت ولم؟ فوالله ما فى قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كعوا لها.»

وأشبه الأشياء بأن يكون بين الروايات المتعددة أن النبى عليه السلام كاشف رئيس أسرت أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عريـر قوم لعزيرة قوم، وقار وهويقاتح عمها فى الامر « إن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا ربح به شرفاً وببلاً وفصلاً وعقلاً، وإن كان فى نمل فلا يأنم المال ظل رائى وعارية مسترجعة، وله فى خديجة بنت حويلد رعية وبها فيه مثل لك» فقال عمها عمرو، أو بن عمها ورقة بن نوفل فى رواية أخرى «هو الفص الذى لا يقدح أنه»^٢، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله، ولم يتزوج عليها فى حياتها لى أن قارب الخمسين

ومن خديجة ولد للنبى جميع أبنائه ما عدا إبراهيم ابنه من مارية القبطية، وهم الفاسم، والطاهر، والطيب، وريب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال.

وكان النبى عليه السلام عند رواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، أما السيدة خديجة فمضى كتاب السيرة من يقول إنها كانت فى الأربعين أو الخامسة والأربعين، ومنهم ابن عباس يقول «إنها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تحاوره» وأخرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة لأن ابن عباس كان أولى الناس أن بعن حقيقة عمرها، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للرواح بعد الأربعين، ولا معهد فى أغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد، عدا من جاء فى بعض الروايات أنهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم.

وقد يرجح تدوير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها، فلا نتجاوز الخامسة والعشرين بعد رواجبى لم يكتب لهما طول الأمد، وإن كذا لا نعرف على

١) مستبشرة استبشاً الرجل، بحث عنها وتطلبها وتتبعها
٢) يقدح أنه قدم للرجل صاحبه؛ منه وكفه والفرس كبه

استحقيقكم من السنين دام رواحها من أبى هاله ومن عتيف بن عائد، فمن الكلام
عن دريتها منهما يبدو أن أباها معها لم ترد على بصعة أعوام

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم أسى تدرلت عليه
تلك الحكمة الإلهية.

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين، خلافا لما جرى عليه العرف
بين عالية لقوم، وهو من تلك العنية في الدواية^(١) العيا

ولقد عزت الهامة الروحية على السيدة العنية الوصيئة^(٢) الدكية، فتأملت^(٣) في
بحر الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعنه كان يبنى قبل العشرين بكرامة معشر تصعده بوضع
سير، وكان هذا هو الحط السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد

ولو تيسرت الهامة الزوجية لخديجة لعلاها كانت في غنى عن يتحر لها
ويؤمن على قوافلها بين الحجار والشام، ولكان بها من مالها وما روجها عن
في الرحلة والمقام وكان هذا هو الحط السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد
أيهما كان خيرا^(٤)

هذا الذي كان كما كان، أو ذاك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ
الحسن الرشيد^(٥)

لم يمض سنوات على هذه الاصرة^(٦) القدسية نسي جمعت بين الروحين
الكريمين حتى صرا طارئ لم يدخل لهما في حساب واستحاش الغيب نفس رسوله
فتحفرت لأداء الأمانة اطلت التي حاشت بها حو بح الدبيب منات السنين

فلم يجد محمد لى حابه فتد عريره تفرع ولا تدرى ما تصنع، بن وحد إلى
حابه قلب كريما وروحا عظيما وسكب بهدا عبده حائشة صميره وتطمس إليه
خشية فؤاده، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن إليها أنها حكمة السن

(١) الدواية صميره الشمر المرسدة ومن الجبر علاه، ولان نواية قوم اعلاه وأشرفهم

(٢) الوصيئة المسه النظيفه

(٣) فتأملت المرأة بلا روج، مكر أو ثيبا

(٤) الاصرة حبل صغير يشد به اسفل الخباء وما عطفك على رخص من فزاية أو معروف

وحسار الأمومة، ولكنه أمار الذي يعرف من شأته وشأة اله ما الرسالة وما
أمانة الحق والفصيلة، وم عاقبة الصبر على العرواء^(١) التي تسك لها عزائم
وتطيش لها أحلام، ولا يتلفها كما يتلقى البشارة المفرجة إلا من هو كفو لها من
بني آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيره خدجة عليها الرصوان خليف على قلته أن يجعلها
بحق سيدة نساء قريش، ولكن هذا الفليس الذي عمناه لو ذهب كله ولم يبق منه إلا
أيام حصانتها ببشائر النبوة في طاعتها - لصن لها أن تتبوا مقام السيادة بين
نساء العالمين.

وفد يفى محمد يذكر لها تلك الأيام إلى محنتهم أيامه، وظل يتفقد ويتفقد
مواطر دكراها أعوام بعد أعوام، لقد كان فيها اشعل الشاع عن أصيب لأيام
وأصعب الأيام وإن وفاء كهذا هو وحده كفاية المستقصى في التعريف بحقها
من زوجة بارة وأم رءوم، فما من شهادة لإنسانة هي أصدق من دوام الوفاء لها
في قلب إنسان عظيم

* * *

(١) العرواء (بضم قفتح) قرء الحسنى، ومنها أول ومدتها

نشأتها



إِذَا وَصَفْتَ نَشْأَةَ الزَّهْرَاءِ مَكْلَمَةً وَاحِدَةً تَغْشَى عَنْ كَلِمَاتٍ مَالِجِدٍ هُوَ تِلْكَ لِكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ

دَرَحْتُ فِي دَارِ أَبَوَيْهَا، وَالِدَارِ يَوْمُنْدُ مَقْبِلَةٌ عَلَى أَمْرِ حُلٍّ لَمْ تَتَحَمَّعْ بِوَادِرِهِ فِي غَيْرِ تِلْكَ الدَّارِ، وَغَرَّ حَرَاءٌ.

أَمْرٌ حُلٌّ لَا تَقِفُ جَلَالَتُهُ عِنْدَ حُدْرَانِ الدَّارِ، وَلَا عِنْدَ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا، وَلَا عِنْدَ حُدُودِ الْحَزِيرَةِ ابْعُورَةِ بَعْمَارِهَا وَقَفَارِهَا، بَلْ هُوَ الْأَمْرُ الْجَلُّ الَّذِي يُطَبِّقُ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ عَصُورًا وَرَاءَ عَصُورٍ^(١)، لِأَنَّهُ هُوَ أَمْرُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ يَوْمُنْدُ تَحْتَلِجُ فِي صَدْرِهَا، هُوَ صَدْرُ أَبِي الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مَا هَذِهِ الصَّلَوَاتُ وَالتَّسْبِيحَاتُ؟ مَا هَذِهِ الْهَيْئَةُ^(٢) بَيْنَ الْأَبْوَيْنِ؟ مَا هَذَا الْوَحْشُ وَمَا هَذَا الْقَنُوتُ^(٣)؟

أَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ الطِّفْلَةَ الصَّغِيرَةَ لَمْ تَسْتَعْرِبْ شَيْئًا مِنْ هَذَا لِأَنَّ الطِّفْلَ لَا يَسْتَعْرِبُ الْأَمْرَ إِلَّا إِذَا رَأَى مَا يَحَالِفُهُ، وَهِيَ لَمْ تَفْتَحْ عَيْنَيْهَا عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْبَوَادِرِ وَالْمَقْدَمَاتِ

أَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ الزَّهْرَاءَ الصَّغِيرَةَ لَمْ تَسْتَعْرِبْ شَيْئًا مِمَّا كَانَ يَحِيطُ بِهَا وَهِيَ تَذَرُحُ فِي مَهْدِهَا، وَلَكِنَّ الطِّفْلَ الَّذِي يَحْسِبُ هَذِهِ الْمَشْهَدَ مِنْ مَأْلُوفَاتِهِ يَفْقَرُ بِمَأْلُوفَاتٍ لَا تَتَكَرَّرُ مِنْ حَوْلِهِ، وَيَتَّحِدُ لَهُ قِيَاسًا لِلْأَلْفَةِ وَالْعَرَابَةِ مِثْلًا بَيْنَ أَقْيَسَةِ الْبُفُوسِ

وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ يَسْتَأْطِفُ مَعْطُوفًا عَلَى نَفْسِهِ، مُسْتَحْفًا بِمَا يَخْفَى لَهُ الْعَالَمُ مِنْ حَوْلِهِ، مُتَطَلِّبًا مِنْ عَادَاتِ الْبُفُوسِ وَطِبَائِعِهَا غَيْرَ مَا يَتَطَلَّبُونَ

(١) الْهَيْئَةُ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ لَا يَفْهَمُ

(٢) الْقَنُوتُ الْغَيْبُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الرَّجُلَيْنِ، وَالْإِسْبَاكُ عَنِ الْكَلَامِ فِيهَا

ولقد أوشك الرهراء أن تنشأ بشاة اطفل الوحيد في دار أبويها، لأنها لم تعد معها غير أخت واحدة ليست من سنّها وغير أخيها هند، وهو أكبر منها ومن أختها ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطعة لوحيدة أن تكبر معها، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات إخوتها الكبار إلا ما يحزن ويشعن مأسوا صغراً وخلعوا في نفوس الأبنون لوعة كامنة وصبراً مريراً، أو تروح من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب، ثم لم تلبث الخطبة أن دبت لى أختين لألهما خطبت إلى وادي أبي لهب، ثم أصبح أبر سهب عدوا للأبوين يفتنهما ويمقتانه، فاستهت خطبة الأحنين الشقيقتين بهذا العداء

حدّ من كل جانب تركن إليه، واطراء على النفس لا تستمره ولا تحب أن تتبدل، ملاده في كل هذا حنان أبوين لا كالآباء حنان حاد رصين، وبكاد يقول بل حنان صابر حزين، يشتمها به لأب اسى مات أباه ولا عراء به من بعدهم غير عبء الذنوة اسى تأهب له رمزاً وبهص به زماً ولا يرال يعانى من حملة ما تنوء به الحبان ويشتمها به الأم اتى حاورت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه السنّة الدارحة صغرى سريها، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراى الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان بعمر احق صابر حزين

ولقد نعت برهراء بهذا الحنان من قلنين كبيرين حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والامطلاق

وتعلمت الرهراء في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة آيات من القرآن وعبادات آبائها من حولهم العابرون وغير العابدين.

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما تتعلمه غيرها من البنات في حاضرة الحزيرة العربية، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تصمد حراح أبيها في عروة أحد، وأنها كانت تفوم وحده بصنيع بيتها ولا يعيها أحد في أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها، فلم تعرض قط شيء غير شأنه وشأن بيتها، ولم تتحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلحنها إليه حادث لا ملحاً منه، فلا فصول هالك في عمل ولا في مقال

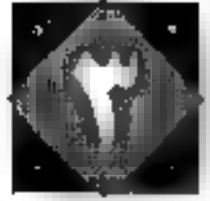
وسواء صح ما جاء في الأنباء عن محادثتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه محار لمراحة، فالصحيح الذي لا مراحة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعتة من علي، وأنها صلت به ووعت أحكام فرائضه، وأنها وعت كل ما وعته بتاة عربية أصيلة العرق والنسب، وراست عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرفت

لقد نشأت بشاة حد واعتكاف^١ شاة وقار واكنفاء، وعلمت مع السنين أنها سيلة شرف لا مبارع لها فيه من واحدة من بيات حواء فمن تراه، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذي لا يداني، وشبت بين انطوائها على نفسها واكنفائها بشرفها كأنها في عزلة بين أبعاء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية حثما يصيق بقوتها، وقلم ررق الراحة من احتتمع له النفس بقوة والحثمان الصعيف، فإيهما مزيج متعب للنفس والحسم معا لا قوام له بغير راحة واحدة هي راحة الإيمان، وهذا هو توفيق الأكبر هي شاة البرهراء، فإيهما نشأت هي مهد الإيمان إذ هو أكرم ما يكون بها بين قوة نفسها وبحول حثمانها

* * *

(١) اعتكاف: اعتكف هي المسجد أقيم به وحيس نفسه فيه



زواجهـا

قال الرضا في شرح الموهب اللدنية « إن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد الله يا أبا محمد كم بلغت فاطمة من السن؟ قال ثلاثين سنة، فقال الكلبي خمسا وثلاثين فقال هشام اسمع ما يقول، وقد عني بهذا الشأن فقال يا أمير المؤمنين سئني عن أمي وسل الكلبي عن أمه» وتوافق هذه الرواية روايات متعددة، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات، فأصبح الأقوال بين لأخبار المتصديقه أنها عنيها السلام قد تروحت وهي في نحو الثامنة عشرة

ومن حمته الأخبار يتضح أن النبي عليه السلام كان يبقياها لعل رضى الله عنه فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما أنتضربها بعصا، أو قل إنها صغيرة كما جاء في سنن النسائي.

وفي أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأتى رسول الله قال عمر «أنت لها يا علي» فقال علي «ما لي من شيء إلا برعى أرضها» فروحه رسول الله فاطمة فلما بلغ ذلك فاطمة بكت، ثم دخل عليها رسول الله فقال «مالك تبكين يا فاطمة فوالله لقد نكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما»

وفي رواية أن عليا لما سأله النبي «هل عندك من شيء؟» قال «كلا» فقال له «وأي درعك الحطمة؟» أي التي تحطم لسيوف، وكان النبي قد أهداه إياها فباعها وباع شيء غيرها كاس عنده، فأجمع له منها أربعمائة درهم

جاء في أنساب الأشراف للبلاذري «فباع بغيرها له ومداها فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهما وبقي أربعمائة درهم، فأمره أن يحول ثلثها في أطيب وثبتها في المتاع ففعل»

ثم استورد صاحب أنساب إلى رواية أخرى، يرتفع سداها إلى علي نفسه من سمعت عينا عليه السلام يقول «أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ بنته فقلت والله ما لي شيء، ثم ذكرت صلته وعائته فخطبها إليه» فقال «وهي عندك من شيء؟» قلب «لا» قال «هأين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟» فقلت هي عندي! قال فأعطها إياها»

وفي صفات ابن سعد أن رسول الله قال لم خطب أبو بكر وعمر فطامة «هي ث يا علي ست بدجال» يعني لست بكذاب. وذلك أنه كان وعد علياً بها قبل أن يحط بها ويروى عن النبي أنه قال فطامة «ما أتيت» أن أروحك خير أهلي»

وجهرت وما كان لها من جوار غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها لبف وبورة من أدم (إساء يعمل فيه) وسقاء ومنخ ومشفة وقدح ورحاءان وحرثان.

وعن أنس بن مالك أن النبي قال له انطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار، قال فانطلقت فدعوتهم، فلم أخذوا مجالسهم قال ﷺ «الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته، لمطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في رصه وسمائه الذي خلق الخلق بقدرته وغيرهم بأحكامه وأمرهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لا حقاً وأمرنا معترضاً وحكماً عادلاً وحيزاً جامعاً، وشيخاً بها الأرحام وأزمتها الأنام فقال الله عز وجل وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً، وأمر الله يجرى إلى قصائده وقصوده يجرى إلى قدره ولكل أجر كتاب يحوي الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي وأشهدكم نسي زوجين فاطمة من علي علي أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك عسى السنة القائمة والعريضة الواجبة، فجمع شملهما وبارك بهما وطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمر الأمة، أقول قولي هذا وأستعبر الله لي وبكم»

قال أنس «وكان علي عليه السلام عائلاً في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه إليها ثم أمر لها بطبق فيه تمر فوضع بين أيديها، فقال انتبهوا فبينما نحن كذلك إذ أقبل علي فتبسم إليه رسول الله ﷺ وقال يا علي إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة، وإنني زوجتكها علي أربعمائة مثقال فضة، فقال علي رضيته يا رسول الله ثم إن علياً خرساً سجداً شكراً لله، فلما رجع رآه ما بال رسول ﷺ يبارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكم الكثير الطيب»

قال أنس «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب»

(١) ألقت قصصاً وابطان

(٢) أوشح أوشح الله بين العزم لله وغلط

ومن المرحح جداً أن الرهراء قد استشيرت في رواجها على عادة النبي عليه السلام في نزويج كل سنت من بنته كما جاء في مسند ابن حنبل، فيقول لها هلان يدرك، حين سكنت أمصى الزوج، وإن تعرت الستر علم أنها تأباه، وفي روح الرهراء قول لها يا فاطمة إن علياً يذكرك فسكنت، وفي روايات أخرى أنه وحدها باكية، هناك حيث قال رسول الله «ما لك تبكين يا فاطمة! هو الله لقد أنحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حِلماً وأولهم سلماً»

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الزواج، ولكنهم قالوا إنه كان بعد لحره، وبعد عروة بسر وأرجح الأقوال كما قدمنا أنها كانت في نحو الخامسة عشرة، وروحها أكبر منها ببضع سنوات

توخياً في اقتباس هذه الأخبار أن مرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين، فما من خبر من هذه الأخبار وصلاً إلينا في كتب السيرة على رواية واحدة، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأحوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرصى والإبكار، فلا محاص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ومن معنى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح دُماً على المعايلة والموارنة والرجوع إلى حوادث الزمن وعادات أهله، وإلى الأخرى أن يصدر ممن أسند إليهم القول أن نسب إليهم العمل فإن الأخبار إذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثلاً أن يؤثر النبي علياً بفاطمة وهما ربيبان في بيعة واحدة ومن المعقول أن يؤثر رواجها من علياً على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر لزوحات الشيخين، ومن المعقول أن يتردد علي في خطبتها بقره ولا يحالف المعقول ولا المؤلف أن يقدم بعد تردد لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي عليه أن يقصع الشك باليقين ويعمر من عنده ما لا بد له من عمله، ولا يحالف المعقول ولا المؤلف كذلك أن يتأخر الرواح إلى ما بعد الهجرة، لأن حياة المسلمين في مكة - قبل الهجرة إلى المدينة - لم تكن حياة أمن ولا استقرار، ولم يكن من العادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم إلى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا

وسائل الهجرة، فمن كان متروكاً قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج، ومن لم يكن فليس أخلق به من إرجاء الزواج إلى حين ذلك كله هو المغفون لمألف، وهو الأوسط الأمثل إذا تسارت الأخبار ورحبت الموازنة والترحيح

إلا أن التاريخ يكتب للاعتبار، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر إلى الحوادث والناس واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يحوز ولا يحوز. وما هنا محل لعبرتين كأهم العبر في كتابة التاريخ كتابته في الأزمنة الغابرة، وكتابته في الزمن الحديث

فأهم العبر التي تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد ذوو الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى فلا يربوا حكماً قاطعاً في مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات، فما كان من الأخبار مجمعاً عليه أو مقارباً للإجماع فهو حدير باتخاذ الأحكام الحازمة فيه، وما كان ميران الحكم به كلمة تقابلها كلمات، أو فرضاً تقابله فروض، أو رقماً ويوماً تقابله أرقام و أيام بل أعوام، وليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الحرم وإيقين، وبخاصة حين يبنى عليه اتهام أو قصاء لا يقوم في مسأله كل يوم بغير بية تنفي كل شبهة وتبطل كل محال.

أما العبرة في تاريخنا العصري فمرجعها إلى كتابة طئفه من العصريين يرفعون أنهم يطبقون روح العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق، وليس أحرر منهم عن تحقيق هذه الدعوى، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يربون بميزانين وينظرون بعينين، ويختلفون أسباب التشويه والتحريف

أولئك هم طائفة لمستشرقين الدين يجمعون بين الاستشراق والنشير فمن هؤلاء من يطالع في الكتب الأدبية التي بصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أموراً لا شك في أنها من لعيوب فلا يحسبها عيوباً، ولا يتأفف منها، بل يفتت فكره ويعتتها تحريف وتعويها حتى يقبلها، ويفرض قبولها على الناس

فإذا طالع كتباً عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين، بل أخذها على البقيص من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن إلى عيوب، أو بالتنقيب في كل مكان عما يعاب إن لم يجد ما يعيبه في ظاهر الصور والحروف

وما من شيء يمسح الدين ويمسح العلم معا كما يمسحها هذا الخلق الدميم، فإن الدين لا يعلم الإنسان شيئا إن لم يعلمه حب الصدق واحتساب التحمل^(١) والافتراء، وإن العلم شر من الجهل إن كان يسوم الإنسان أن يغمص عينيه لكيلا يرى ويوصل أذنيه لكيلا يسمع، وليس هذا جهلا يرول بكشف الحقيقة، ولكنه مرض يعتمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي مكشوفة لديه، فهو شر من الجهل بلا مرء وفي تاريخ الزهراء مثال للعبارة التي تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء» الذين هم شر من الجهلاء وأحدهم قد خصص كتاب لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن «يطبق» ذلك العلم العصري المقبوض، فهذا هو منقلب عليه

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الدين عاشوا رمب في الشرق كتبها عن الزهراء ليرضى فيه ذلك «العلم العصري» المقلوب، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب، فإذا العيب هو في الإسفاف، وكم هي الإسفاف من عيوب، بل من ديوب^(٢) ومن تفهاته وسفاسفه^(٣) أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال، ولم تصدق أن أحدا يحطبها بعد تلك السن، ثم يقول إنها لما عرض عليها النبي الزواج من على سكنت هنيهة ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب، ثم تكلمت فشكت، لأنها تزوج من رجل فقير!

لو كان السند الذي استند إليه هذا «العالم» واضحا ملرما لقينا إنها أمانة العلم، ولا حيلة للعالم في الأمانة العلمية!

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها وتقابل أسرار أخرى تنقصه وتقرئى بمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراه، لأنه يحب أن يرى ما يحب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه فالمشهور الموانر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين وأن أخواتها تزوجن من ذوي غنى وجاه، كأبي العاص بن الربيع وعثمان بن عفان وليس من المؤلف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال وأن يحرمه إحدى إبنات!

(١) التحمل، تحمل الشيء، طلبه بحيلة وتكلف ومنه تحمل له عدرا

(٢) سفاسفه المفساف الرديء من كل شيء، وما رق من القراب

والمشهور امتواتر أن السيدة عاتمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية في إبانها، والمسلمون بين مهاجر أو مقبم غير آمن، والحار قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية وأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين، وهؤلاء المسلمون فئة، منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج، فلا حاجة بالمؤلف إلى البحث اطوي ليتهدي إلى السبب الذي يؤخر رواج بنت النبي إلى الثامنة عشرة، ولو كانت أحسن الحميلات.

وفي وسعه كذلك أن يتصور أن النبي يخص بها ابن عمه، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بيته ويحس أنه الآن لا يزاور على دين الحاهلية فلا هم في ذلك الوقت دونه ولا هم بعداء عنه كل ذلك قريب كس في وسع «العالم المحقق» أن يراه تحت عيبيه قبل أن يذهب إلى العلة التي اعتلها لتأخير الزواج، فلا يرى له من علة غير فقدان الحمل ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت إليها لأنها لا تعيب، والسبب الخفي البعيد تشويه غضاضة^(١)، وهو الجدير إذن بالالتفات

وكأنما كان «العالم لمحقق» في حاجة إلى جهالة فوق جهالته، فهو يعهم من بكاء لسيدة عاتمة أنه شكية من فقر على بن أبي طالب، ويسد هذا العهم إلى رواية البلاذري في أنساب الأشراف بعد رعمه أن عاتمة أبلغت رواجها على فسكت من الدهشة لا من الضل، وإنما دهشت لأنها لم تكن تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين.

أفمن لمؤلف أو من التطبيق العلمي أن تكرر العقاة يائسة من الزواج، مدهوشة من خطبة الخطيب، ثم يعلن العدل وتعرض لشروط وتستعظم نفسها على بنى عموميتها الفقراء، وليست هي يومئذ من الأعياء؟

كلا ليس ذلك بالمؤلف ولا بالتطبيق العلمي، ولكنه تمحل للطر فصيلته الكبرى أنه يشتم على مساس بعاتمة وعلى. فهو إذن أحق بالترحيب من كل تقدير مؤلف.

والبلادري - بعد - لم يذكر شيئاً من هذا، وليس في كلامه عن مناقب على أو عاتمة شيء من قبيل الحواب الذي ينسب إلى الزهراء غير روايته الحديث بسنده

(١) غضاضة بضم الغاء، الشهاب والطراد، والمدة والانكسار نقول هو شاب بين الغضاضة، وليس عليك في هذا الأمر غضاضة

وهو «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبي إسحاق عن حبشي بن جعدة قال لما روج رسول الله ﷺ أرعدت فقال اسكتي فقد روجتك سيداً في الدنيا وإياه في الآخرة لمن الصالحين»

هذا ما وجدناه في النسخة المنقولة من مخطوطة الأستانة ومن المطبوعة في أوربه، فتفسير «الرعدة» بذلك المعنى إنما هو من إبداع المؤلف الحصف

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتنزون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه، يمر به لعبته الساعية في وزن التواريخ العصرية المرعومة، ولا يعبه إليه لقول قائل إن السيدة فاطمة كانت محرومة من الحمال فإنه لو صبح لها كان فيه مهابة على سدة شرفها أكرم الأبواب كما شرفتها أكرم البواب، ولكن يعبه إليه لأنه عمرة المعتبرين فيما يصعبه العقل بنفسه حين يمسحه مرص الأهواء، فيفتري على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم، ويعافه أدب الدين

ونعود إلى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول، فنقول إنما بحثنا عن خبر من أخبار رواج النبوة في آل محمد ولعلنا، فلم نجد في عصر النبوة غير خبر واحد على قبيل الخبر الذي قبله إن السيدة فاطمة أشارت إلى فقر على حين بكى خطبته لها، وهو تروج السيدة أم كلثوم وبين الخبرين، مع هذا، بون بعيد.

حاء في أسد الغابة عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب أنه قال: «لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخر عليها حسن وحسين أخاها فعلا «بك» ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن، وإنك والله إن أمكنت عليا من رمتك ليحكك بعصر أيامه وإن أردت أن تصيبي بنفسك مالا عظيما لتصينيه»، فوالله ما قاما حتى طلع على يتكئ على عصاه، فحسن فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة وأثركم على سائر ولدي لمكانكم من رسول الله ﷺ فقالوا صدقت رحمتك الله، فجزاك الله عنا خيرا فقال: «ي بنية» إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك، فأنا أحب أن يجعله بيدي فقالت أي أنه؟ إلى امرأه أرعب فيما يرعب فيه النساء وأحب أن يصيب مما يصيب النساء من الدنيا، وأنا أريد أن أنظر في أمر نفسي فقال: لا والله يا بنية ما هذا من رأيك ما هو إلا رأي هذين ' ثم قام فقال والله لا أكلم رجلا

منهما أو تفعلين، فأحدا بشيابه فقالا احلس يا أبة، فوالله ما على هجرتك من صبر اجعلنى أمرك بيده فقالت قد فعلت قال فإنى قد روجتكم من عون بن جعفر، وإنه لعلام، وبعث لها بأربعة آلاف درهم

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهم ليسعداهما برواح أرم من الزواج الذى يختاره أبوهـ تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لا يصبر على عصبه وتدل فى سرها وعلاقتها على حمل ما يكون بين الإخوة والآباء من عطف وتوقير وليس فيها من الشبه بروايه البلاورى غير إشفاق الفتاة من عيشة الصك دور أن يكون هناك خطب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمرحعة، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول^(١)

فإذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف أصل يعون عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابه، لأب لا تتخيل فتاة فى مثل موقعها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ورداع بيت أبيها، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها والصفاء لها فى رخانها وعسرهما، ثم يكون يوم الفصال فى عربة من البيت الذى لزمتهامه ومن البلد الذى يحتويه، فإن جهدنا أن نتخيل فتاة لا تنكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقرب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كف أبيها ومعيشتها فى غير كفه، فموصوع الغربة من نتجيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسفة، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزن وأسى دعين على أمها العريرة لم يفارقها مدى السنين

ومثل النبى الذى كانت كبرى فصائله أنه إنسان عظيم، وأنه كان أباً مكروم القواد، لن يعونه ذلك الخاطر فى ذلك اليوم، ولن يسكت عنه إلا عامداً عالماً بما يلعبه فى النفس من الحزن والشحن، فمن اللطف بالفتاة انحرابه أن يحاشاه وأن يحسن عراة لها ما قاله عليه السلام «مالك تبكين يا فاصمة» فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلاً وأولهم سلماً

ولم يمح غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطال بقاء فاطمة فى بيت أبيها فإنه عليه السلام كان يحتو عليها لصعها وحزنها ولا يصبر على

(١) البتول، المنقطعة عن الزواج.

(٢) يلعبه نعيم ملان الذى بالسرمية ألمه وأحرق جلده والحب مؤامره. أحرقه

مراقبها، فلما تحولت عن داره بعد رواحها لم تمص أيام حتى ذهب إليها فقال لها
 ابني ربد أن أحولك إليَّ فقالت: فكم حارثة بن النعمان أن يتحول عني فإن رسول
 الله قد تحول حارثه بن النعمان عنا حتى استحيت منه فبلغ ذلك حارثة فتحول
 وجاء النبي فقال ما رسول الله به بمعنى أنك تحول فاطمة إليك، وهذه مازلي،
 وهي أسقف بيوت بني النجار بك، وإنما أب ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله
 لئلا الذي تأخذ مني أحب إلي من الذي تدع مقار رسول الله صدقت. بارك الله
 عليك! فحولها رسول الله إلى بيت حارثة

جاء في كتاب السهمودي عن أخبار دار المصطفى «لن بيت فاطمة رضى الله
 عنها في الزور الذي في القبر بسنه وبين بيت النبي ﷺ خوخة^(١). وكانت فيه كوة
 إلى بيت عائشة رضى الله عنها، فكان رسول الله ﷺ إذا قام اطلع من الكوة إلى
 فاطمة فسلم خبرهم، وإن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلي إن ابني أمسيا غيلين
 فلو نظرت لما أدمت مستصبح به فخرج علي إلى السوق فاشترى لهم أدماء وجاء به
 إلى فاطمة، فاستصيحبت. فأبصرت عائشة المصباح عندهم في خوف الليل - وذكر
 كلاما وقع بينهما فلما أصبحوا سألت فاطمة لنبي ﷺ أن يسد الكوة فسدتها».

إلى أن قام ما خلاصته من جملة أسانيده: «أنه صلى الله عليه وسلم كان يأتي
 باب علي وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعصدي^(٢)
 الباب ويقول السلام عليكم أهل البيت، ويقول الصلاة ثلاث مرات، إنما يريد الله
 ليذهب عنكم الرحس أهل البيت ويظهركم تطهيرا. وكان النبي ﷺ إذا قدم من سفر
 بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يثنى بفاطمة، ثم يأتي بيوت مسائه».

وأسد يحيى عن محمد بن فيس قال: «كان لنبي ﷺ إذا قدم من سفر أتى
 فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة
 مسكتين^(٣) من ورق^(٤) (بكسر لراء) وقلادة وقرطين وسترى باب البيت لقد وم أبيها
 وزوجها، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يرون
 أنسفون أم ينصرفون لظن مكثه عندها، فخرج رسول الله ﷺ وقد عرف العصب

(١) خوخة باب صغير كالساعة الكبيرة يكون بين بيتين

(٢) بعصدي العصاة بالكسر من الباب جانبيه، وهما عضادتان عن يمين الدخول منه وشماله

(٣) مسكتين المسكة السوار والخلخال.

(٤) ورق اللبنة، والدراهم المصروبة.

في وجهه حتى جلس على المنبر، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكينين والقلادة والستر فتزعت قرحطها وقلادتها ومسكتها وزعت الستر وبعثت به إلى رسول الله ﷺ، وقالت للرسول، قر له تقرأ عليك أميئك السلام وتقول لك اجعل هذا في سبيل الله فلما أتته قال قد فعلت، فذهب أبوها ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت السبي تعدل عند الله من الخبر حناح يعوضة ما سقى كاعرا منها شربة ماء»

وانتظمت الحياة في لسكن الحديد لدى أوى إلى ظل النبي على مثال من حياة النبي في بيته عيشة كفاف وخدمة يتعاون عيها رب البيت وربته، إذ كان رزق على من وظيفة الحسني، ووظيفته من فيء الجهاد، وقد كان قليلاً في حياة النبي، وهو معصور على انحريره العربية، وكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة اخدم، وكلما رزق وليده حاءته حصته على قدر شأنه كشأن كل أب من المسلمين وما لبث البيت الصغير أن سعد بالدربة وقد رزق الأبوان الفقيران بصيبا صالحا من الجبين والبيات الحسن والحسين ومحسن، وريث وم كلثوم

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذي كان يوالهم به جميعا ولا يحصره عنه شاعل من شواعه الحسام في محتدم الدعوة والجهاد، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدلوس كل ورد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا في الصدور والأوراق

فلما ولد الحسرس سماه والداه حربا فجاء رسول الله فقال أروني ابني ما سميتموه؟ قالوا حرب قال بل هو حسن، وهكذا عند مولد الحسين، وعند مولد المحسن، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه، فريما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ولم يلبث أن حفظها المشرفان

حَرْقُهُ^(١) حَرْقُهُ - تَرْقُهُ - تَرْقُ عَيْنُ بَقَّةٍ

وريمما شوهد النبي عليه السلام ساجدا وصل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه، فيأسي في صلاته ويعطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه، وفي إحدى هذه السجرات يقول عمر بن الخطاب للطف السعيد المصيبة مطيئك

(١) العرق، النصير

بن ربما كان على امير، فقبل الحسن والحسين يمشيان ومتعثران، فيسبقه
حماه إنيهما ويرل من المير ليحملهما، وهو يقول: «صدق الله العظيم» إنما
أموالكم وأولادكم فتنة»

وكان إذا سمع أحدهما يبكي بدى فاطمة وقال لها: «ما بكاء هذا الطفل؟ ألا
تعلمين أن بكاءه يؤذي؟»

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حينما بعد حين، ويدولى خدمة الأطفال
بنفسه وأبواهم قاعدان ففي إحدى هذه الليالي سمع لحسن يستسقى فقام صلوات
الله عليه إلى قرية فجعل يعصره في القديح ثم جعن يععبه، فساو الحسن فمعه
ويداً بالحسن فالت فاطمة كأبه أحب إليك؟ قال إنما استسقى أولاً

وقد يلهم جميعاً في برد واحد فيقول لهم: «أنا وأنتم يوم القيامة في مكان واحد»
وكانت هذه الأوبة الكبيرة أعر عليهم جميعاً من أوبة الأب الصغير، فكانت
فاطمة تقول إذا رفضت طفلاً

وليس لي شيء الذي لي لست شبيهاً به على

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين الذين يتناقسون على حب لا يمنع
بعضهم بعضاً أن يناموا عليه

* * *

حياة سعيدة مع الشطف والفاقة سعيدة بالعصف هي قلوب كبار، ما كان
حسام الدنيا عندها ليساوي متقال درة من هباء

ولم تحل هذه الحياة، وما خللت حياة آدمي قط، من ساعات خلاف وساعات
شكاية، فربما شكت فاطمة وربما شكا على، وربما أخذت فاطمة على قريبها
بعض الشدة وما هي بشدة، فما كان رجل مثل على ليعصف على بنت رسول الله
وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله إنما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وبهاؤها أن
تهمل حيث كانت، وإنما هو الحنان الذي تعودته من أبيها فلا تستريح إلى ما
دونه، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند
من يتعقده فلا يجد نظيره في قلب إنسان.

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما في كل خلاف، وربما ترك مجسده بين الصحابة ليدخل إلى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من حياء. والصحابة الذين يتتبعون في وجه النبي كل خالعة من خوالج نفسه، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه، لأنه لا يملك من ضميره ما يصر به على المتعلم والمتبصر، يحرون معه على عادتهم كلف دخل البيت مهموماً وخرج منه منطلق الأسارى، فيسألونه فيجيب: «ولم لا وقد أصلحت بين أحب ناس إلي»

ومرة من هذه المرات، بلغ لعتاب عايه ما يبلغه من خصومه بين زوجين، ومضى إلى فاطمة أن عليها بهم بالنزواج من بنت هشام بن المعيرة، فذهبت إلى أبيها باكية تقول: «يزعمون أنك لا تعضب لبناتك؟»

كلمة تعلم وقعها في نفس أبيها «أى ما رعمت هي قد أنه يرصى بما يغضبها، وقد عرف أبوه ما تعنى» لأبى بنى هشام بن المعيرة استأذنه في تزويج بنتهم من زوج فاصمة، فصعد المنبر والغضب باد عليه، وقال على ملا من الحاضرين «ألا إن بنى هشام بن المعيرة استأذنى في أن ينكحوا ابنتهم عليا، ألا وإنى لا آذن ثم لا آس ثم لا آذن.. إنما فاطمة بضعة منى يرصى ما رابها»

ولا تعلم بحر من شرح هذه الخطبة غير ما جاء في رواياتها المختلفة، ولكن نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وابتعت النبي وحفظت عنه، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفاء من المسلمين، وأهلها هم من هم في المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دين ابن أبي طالب من ذوى قرابته، أو لعلها غضبة من غصبات على على أئمة من أئمة فاطمة، أو لعلها نازعة من نوارع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأنسها وإن أبها العرف في حالة المودة والصفاء ولا نحسب أن حياة الرهراء والإمام تعرضت لخلاف غير الذي أشرنا إليه، فإن كتب السيرة تستقصى كل حليل ودقيق من الحديث عن درية النبي.. ومضى وأبناؤها كل درية النبي الذين عاشوا بعده. ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبي صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر، وكان على قد عاهد نفسه لا يغضبها وقد عاهد عينا عين أبيها، فلم يعصبها بعد تلك حتى في أمر الخلافة، وهو يومئذ أجل الأمور



بلاغتها

قال الإمام أبو الفصير أحمد بن طاهر في كتاب بلاغ النساء « لما أجمع أبو بكر رضي الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ منك، وبلغ ذلك فاطمة ثلاث خمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفدتها تطأ ديولها ما تحرم من مشقة رسول الله ﷺ شيئاً حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فبسطت سوبها ملاءة ثم أتت أمة أحفش القوم لها بالبكاء وارتج المحسن، فأمهلت حتى سكر شيخ القوم رهدأ فوربهم فامنتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ فعاد القوم في بكانهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم، فإن تعروه تحذوه أبي دور مسانكم، وخي ابن عمي دور رحالكم فبلغ الدارة صعداً بالرسالة، مثلاً على مدرجة المشركين، ضربت لثحبهم اخداً بكظمهم، يهشم لأصم وبنتك الهام، حتى هُرم الجمع وولوا الدبر وتفرى اللين عن صاحبه وأسفر لحق عن محصه، وطلق رعيم لدير وحرست شقانو الشياطين، وكنتم على شفا حفرة من النار مدقة الشارب وبهرة «طامع وفبسة العجلان ومرطى الأقدام تشربون الطريق» وتقتاتون القذا، أدلة خاشعين تخافون أن يتحطفكم الدس من حولكم، فبعدكم الله برسوله ﷺ بعد اللثي والتى وبعد ما منى بهم الرجال ودوايان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا باراً للحرب طعاماً وبحم قرن للصلال وهمرت ماعرة من المشركين قدف بأخيه في لهواتها فلا يمكن حتى يظاً صماحها بحمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكوداً في ذات الله قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، وأنتم في بكهيف وادعون اصبون، حتى

(١) الثجن (يسكون للحييم وتحريكها) الطريق للوعر (يمديه)

(٢) الطريق الماء المطروى.

بدا اختار الله لعبه في در أنبيائه صهرت خة لعاق و سمل حباب الدين و نطق
كظم العاريز و منع خامس الاقير و هدر فيق المنطلين فحصر في عرصاتكم
وأطلع الشبطر رأسه من معرره، صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستحيين
وللعرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفاها وأحشمكم فألفكم عصابا
فوسمتم غير إيسكم، وأوردتموها عبر شربكم، هـ والعهد قريب وبكم رحيب
والحرح لما يندمل «

إلى أن قالت: «وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون، ومن
أحسن من الله حكما لقوم يوقنون أيها المسلمة المهاجرة أنتي ارث أسي؟ أسي
اكتاب أن ترثي أبك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئا فريا، فدوبكم مخطوطة
مرحولة تلقاك يوم حشرك فبعم الحكم الله والرعيم محمد والموعود انبيسة وعند
الساعة يخسر المبطلون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون»

ثم انصرفت إلى قبر النبي ﷺ وهي تقول

«قد كان بعدك امجاء وهنيئة

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وبلها

واحتل قومك فاشهدهم ولا تعب»

هذه رواية لخطاب الزهراء، وفي الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة في
أغلبها ومعناها للرواية السابقة، وقبل إيراد الروايتين قال أبو العصار ذكرت
لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم
كلام فاطمة عليها السلام وقلت له إن هؤلاء يشير إلى قوم في زمانه يعصون
من قدر ال البيت - يرعمون أنه مصروع وأنه من كلام أبي العبياء فقال لي
رأيت مشيخ ال أبي طالب يروونه عن آبئهم ويعصونه أبعاءهم وقد حدثني
أبي عن حدى يطلع به فاطمة عبيها السلام على هذه الحكاية، ورواه مشيخ
الشيعة وندارسوه بينهم قبل أن بولد جد أبي العبياء، وقد حدث به الحسن بن
علوان عن عطية العوفى أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه ثم قال

(١) الفيق الجمل القراء

أبو الحسن وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فيذكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أحب من كلام فاطمة بتحقيقه لولا عداوتهم لها أهل البيت»

وسيت إلى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالها بعد موت أبيها صلوات الله عليه، وأنها بعد دفعه أقبلت على أنس بن مالك فقالت: «يا أنس! كيف طابت أنفسكم أن تحثوا^(١) على رسول الله التراب؟» ثم بكت ورثته قائلة اغبرّ أهراق السماء وكثورت^(٢)

شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النسي كثيبة
أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبك شرق البلاد وغربها
ولتبيكه مضر وكل يمان
وسيبكه الطود المعظم جوده
والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه
صلي عليك منزل السقران

ووقعت على قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول

ماذا علي من شم قرية أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليها^(٣)
صبت على مصائب لواسها
صبت على الأيام هنن لياليها

(١) تعثوا: حثوا التراب عليه وفي وجهه قبضة ورماه به

(٢) كورت كور: غلما معنه فألقاه مجتمعا المتاع جمعه وأبقاه بعصه فوق بعض وشبه

(٣) غوالي: الغوالي جمع غالية، وهي طيب مركب من أخلاط تغلى على النار

وقالت على قبره أيضاً

إنا فقدناك فقد الأرض وبها

وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب

فليس قبلك كان الموت صادفنا

لما سعيت وحالت بونك الكئي

ومضى آنفا أنها تمثلت بعد خطابها عن فذك بيتين من البحر والقافية مع

تكرار شطر منهما وهما:

قد كان بعدك أنباء وهنيئة

لسو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

أنا فقدناك فقد الأرض وبها

واختل قومك فاشهدهم ولا تعب

وفيها كما يرى القارئ إقراء، لأن الباء مضمومة في روى البيت الأول

مكسورة في روى البيت الثاني، ولعل شطرا مبهم حل محل شطر في نقل الرواية

* * *

نعرض إن الخلاف في أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير، ولا يحب أن يخصص فيه

لأنه خلاف على غير طائل، وقد يحسمه أن نذكر في هذا الباب ما يقر فيه الخلاف

بين جميع النقاد، فإنه أجدى من اللوم في جدال لا سند له، يسلمه جميع المخالفين

فيقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو

انحاصر، وإن فائله يعده في نفسه قبل إلقائه كما كان يصنع الخطباء قبل

استخدام الكتابة في التحضير

ويقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن سامع هذه الخطب لا يستظهره عند

سماعه، فإن حفظه فيما يحفظه منقولاً أو مكتوباً بعد حفظه

فإذا قل الخلاف في هذا معلام إذن يكثر الخلاف؟

(١) الكتب، جمع كتيب، وهو القل من الرمل

أُتراه يكثر حين يقال إن السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدّها في خدّها»

إن هذا المصيب من البلاغة إذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد في عصرها لا يستكثر عليه

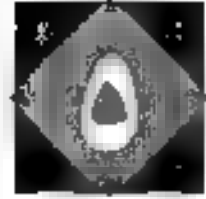
لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البغاء وانتقلت إلى بيت زوجها فعاشرت سبعين تسمع الكلام من إمام متفق على بلاغته بين محبيه وشائنيه، وسمعت القرار يرقس في الصلوات وفي سائر الأوقات، وتحدث الناس في رمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها، ومنهم من لا يحببها ولا يطلق في أمرها عن الهوى

جاء في الجزء الثالث من العقد الفريد عن «الرياشي عن عثمان بن عمرو عن إسرائيل بن ميسرة بن حبيب، عن لميها بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخل عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأحسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده وقبلتها، فدخلت عنده في مرضه الذي توفي فيه، فأسر إليها فبكى، ثم أسر إليها فضحكت، فعلمت كفت أحسن لهذه المرأة فضلاً على النساء فإذا هي واحدة منهن، بينما هي تبكي إذا هي تضحك فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها فعالت أسر إني فأخبرني أنه ميت فبكيت، ثم أسر إلى إني أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت»

وما قالته السيدة عائشة عن المشبهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات حميماً، ويراد عليه في حديث السيدة عائشة أن امرأة هي فصلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلاً على سائر النساء في حلمها وورعائها فقيم يكثر الخلاف على مثل ذلك المصيب من البلاغة إذا نسب إليها» ولما إذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته في حديثه» ولما إذا تستعظم على روعة الإمام الذي كان المتفقون على

بلاغته أكثر من المتفهمين على شجاعته. وهي مصرب الأمثال؛ ولما تستعظم
 عسى سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الدكاء واللب اراحح؟
 أما نسبه الشعر إلى ابرهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها في
 الشاعرات إن ثبت، ولا يصيرها إن لم يثبت، ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه
 أقرب مما إلى جانب اقبور، وليس بعيداً عسى غير الشاعر أو انشاعرة أن يدير في
 همه أبياتاً يحكى بها حربه وبته، فإن العظم هنا أقرب إلى لغة العطفة وعادة
 النحيب، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بايات من القرآن في مقام
 الموت عسى عن نظم الأبيات أو التمثل بها في مقام العبرة والثناء.

* * *



فى الحياة العامة

مضت اسبون ولسيدة فاطمة على دنها الذى عهداه عاكمة على بيتها،
تزنده عكوف عبه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنعرد بها ولا تحد معيت
عليها فى كثير من الأيام غير روحها

ثم توفى النبى صلوات الله عليه، فأقامتها الحوادث فحاة على غير مراده فى
معترك الحياة العامة أو احياء السبسية كما سميها فى أنام، ولم يكن لها
مبصرف عن ذلك المعترك فى تلك الاونة، لان الخلاف فيها كان خلافاً على
ميراث أبيها، ميراث الخلافة، وميراث الفرقة القبيلة اتى أعقبها

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى إحدى المسائل التى طال فيها الجد ولا
يعسر على المتصعين أن يخرجوا من ذلك الجد الطويل على رأى منعق عليه،
وداك أن الخطر الأكبر فى ذلك اليوم إما كان من فتنة السقيفة سقيفة بني
ساعدة، حيث اجتمع قدام الحرج برعامة شيخها سعد بن عبادة، بطلب
الإمارة، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه
وبدوه، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين أمير من الأنصار وأمير من
المهاجرين، وم برج سعد بن عبادة على حلالة شأنه فى قومه باهر من البيعة
لأبى بكر بعد انعقادها وهو سأسى إلا أن «يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس
فببه لهم دون الناس» ثم أصر على إبانته حين انقضى جمع «سقيفة وحاء
الرس يدعوه بالمبيعة معارده العصب وقال لهم «أما والله حتى أرميكم بما
فى كسائتى من بيل وأخصب سدى رمحى» وباشدوه أن لا يشق عصا الجماعة
معاد يقول «إنى صار بكم بسيفى م ملكته يدى، مقنلكم مولدى وأهر بينى
ومن أظاعى من قومى وايم الله لو أن الحر اجتمعت لكم مع الإرس م بايعتكم
حتى أعرض على رضى»

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاصره ولا في معبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره^(١)، وهو خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يحصاها^(٢) باره بين علي والعباس وبين بني هاشم وسائر بطون قريش، نعد قوماً بنصرة بني أمية وبصرة قريش من ورائها، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد، وما كان من همه أن ينصف بني هاشم ولا أن يؤيد الأنصار وإنما أراد لواقعة التي يحذلهم بها جميعاً ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الماهلية

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا خطر تلك الفتنة من سقيفة بني ساعدة، فأنحسرت الفتنة بأنعقاد البيعة لأبي بكر، ولم يطلبها، بل كان مشتغلاً بدهن الرسول ودعى إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم ميم يدعى ويعتذر باستعجاله ويغضب لدعوته، حتى هم عمر بمبايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع في السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين، وفي أن تنجح المسعاة من أبي سفيان في خفائها، وقد كاد أن يعلنها

وكان على في تلك الساعة العصبية إلى حوار الحثام الطاهر المسحى في حورنه، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً «يا أبا الحسن هذ محمد قد مضى إلى ربه، وهذا تراثه لم يخرج عنكم، فابسط يدك أبايك»

ويقول عمه العباس «يا بن أخي هذا شيخ قريش قد أقبل، فامد يدك بأبيك وبيابيك معي فإننا إن بآبائك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإن بآبائك عبد مناف لم يختلف عليك قريش، وإذا بآبائك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب»

فيحييه على «لا والله ما عم إني لأكره أن أبانح من وراء رثاج»

ولقد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاء من بني هاشم وشيخ الدهاء من بني أمية، فما للخلافة معدى عنه إن كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين، وما للبيعة هناك حدودى إن تص وراء رثاج وانسقب بعدها عصا المبايعين والمعارضين

(١) يقطع دابره. الدهر آخر كل شيء، يقال قطع الله دابره أي أخر ما يبقى منهم

(٢) يحصاها حصاً النار أرتها وأشعلها

ولقد تمت البيعة على الوجه لدى عرفه التاريخ، غير يكن هناك حدس ولا جدال بين المصنفين في فضل الأئمة الذين أدركوا الفسنة بين مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبي سفيان، ولا جدال بين المصنفين فيما ابتغوه من خير وحكمة، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعاً لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة في بصرة دينهم، وما كان في وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم في دفع العائلة عن الإسلام من فتنة الردة ومن عارة الفرس والروم، ولا أن يفتح للإسلام في العراق والشام ومارس ومصر فتحة أعظم وأقرب مما فتحوه

وآمن على بحقه في الخلافة، ولكنه أراد حقا يطلبه الناس ولا سيقهم إلى طبعه، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العور لأبي بكر وعمر كأنه في عور رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والإمام يوم أو أياما بعد وفاة النبي عليه السلام، فمن شاء وليأخذ بحجة هذا ومن شاء وليأخذ بحجة ذلك، ولكن الأحبة الباهضة بهم حمبعا أنهم لم يكذبوا لأنفسهم ولا لدويهم، ولم يبقوا دون العاية في خدمة دينهم، ولم يخفى أحد منهم حياة تريب في صدقه وصدق طويته وحسن بلائه، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه

وكاست السيدة فاطمة ترى حو على في الخلافة، أو ترى أن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته، وأن سلاء على في الجهاد وعلمه المشهود به بؤهلاله لمقام الخلافة وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يحرى الأمر على غير هذا المجرى، فاجتمعوا عندها واحتمعوا في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم، أيبايعون أم يتخلفون، ولم يطلع على رواية واحدة ذات سند يعور عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجمعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقص البيعة وبعد مساحلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سمرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسياسة التي بيئها أبو سفيان، فقد عاد أبو سفيان يعرض مجابعتها على علي ويتحقر للوقيعة قصده على وعرض له بذكر العششة والمخادعين، ثم قال له: «إنك تريد أمرا سنا من أصحابه»، فلما ينس من هذا الباب طرق باب آخر لعله يلج منه إلى مأربه، وذهب إلى العباس يقول له: «امد يدك يا أبا الفضل أبايعك

علا مختلف عليك القوم» ثم نقر «إني والله لأحق بميراث ابن أخيك» فيرده العباس كما رده علي، وبكاد الخلاف ينتهي عند هذا ويطوى باطواء الكلام في مسألة الخلافة لولا مسألة «هك» أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سد أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى، «أوشك أبو بكر أن يستعمل المسلمين من بيعتهم، مخافة السخط من بدت رسول الله

وخلاصة الحديث في أمر «هك» أنها قرية كان النبي يقسم فيها بين آل بيته وفقراء المسلمين، فلما قضي عليه السلام أُرست فاطمة إلى أبي بكر تسأل ميراثها منها وفيما بقي من خمس خيبر فقال أبو بكر «إن رسول الله ﷺ كان يقول إني معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وإني والله لا أعير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها» ويقال إن ابنه هراء احتج عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبياء - زكريا - «يرثني ويرث من آل يعقوب» وقوله تعالى «ورث سليمان داود» وإن أبا بكر قال لها «يا بدت رسول الله أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يد لي بحوايك ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تعتقد وأنبأني بما أخذت وتركته».

وحاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة «إن أبا بكر قال يا أبا رسول الله - والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهما وإن الأنبياء لا يرثون فقال إن هك وهبها لي رسول الله ﷺ قال فمن يشهد بذلك؟ فحاء على بن أبي طالب فشهد وحاء أم أيمن فشهدت أيضاً، فحاء عمر بن الخطاب وعند الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله ﷺ كان يقسمها فقال أبو بكر صدقت يا بدت رسول الله، وصدق علي، وصدقت أم أيمن، وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أن هك لأبيك، كان رسول الله يأخذ من هك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل ما في سبيل الله، فما تصنعين بها؟ قالت أصنع بها كما يصنع بها أبي قال فك علي الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك، قالت الله لتفعلن؟ قال الله لأفعلن قال اللهم اشهد وكان أبو بكر يأخذ عتبه يبدع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي، وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان علي كذلك»

وهي خلال انحلاف علي هذه العصية قال عمر لأبي بكر «اطلق بب إلى فاطمة
فربما قد أعصبتها» فاطلقا فاستأدبا عليها فلم تأدس لهما، فأتيا علياً فكلماه،
فأدخلهم فيما قعد، عندهم حولت وجهها إلى الحائط فسلم عليها فلم ترد عليهما
السلام، فتكلم أبو بكر فقال: «يا حبيبه رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب
إلي من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني مت
ولا أبقى بعده، أفترسي أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأسمعك حقك وميراثك من
رسول الله؟» لا إني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول «لا مورث ما تركناه فهو
صدقة» فقالت «أريتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتعملان
به؟» قالا «نعم» فقالت «نشدكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضاء فاضمة
من رضائي وسخطها من سخطي؟» قالا «نعم سمعناه من رسول الله» قالت
«فبني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماي وما أرضيتماي، وإن لقيت النبي
لأشكوبكما إليه» فقال أبو بكر «أما عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا
فاطمة»، ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه ترهق. ثم خرج فاحتجم إليه الناس
فقار لهم «سببت كل رجل منكم معاق خليلته مسروراً بهله وتركتموني وما أنا
فيه» لا حاجة لي في بيعتكم أقيلووني بيعتي»

وحدث في مسألة فذك هو كذلك من الأحاديث التي لا تنتهي إلى مقطع
للقول متفق عليه غير أن الصدق فيه لا مرأ أن الرهراء أخر من أن تطلب ما
ليس لها بحق، وإن الصديق أحل من أن يسلبها حقها الذي تقوم البيعة عليه،
ومن أسخف ما قيل إنه إنما معها فذك مخافة أن يعق علي من عنده علي
الدعوة إليه، فقد ولي الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يسمع أن أحداً
بايعهم لما أخذ منهم، ولم يرد ذكر شيء من هذا في إشاعة ولا في خبر يقين،
وما يعلم من تركية لزمة الحاكم في عهد الخليفة الأول أوضح بيعة من حكمه
في مسألة فذك، فقد كان يكسب برضي فاطمة ويرضي الصحابة برضاها، وما
أخذ من فذك شيئاً لنفسه فيما ادعاه عليه مدع وإنما هو الحرج في دمة لحكم
بلغ أقصاه بهذه القصية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين رسول الله
عليهم أجمعين

* * *

ولعلنا نحمل ما وقرنى أدهان المسلمين الثقافات من أمر هذك بكلمة قالها عدل
من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها، بعيداً من انخصوصمة بعيداً من
زمانها، بعيداً من الشبهة فيها، لأنه قال كلمته وهذك فى يديه يفرل عنها
باختباره، لا يدعوهُ إلى ذلك داع غير وحي ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز الفاتل فى مستهل عهدہ بالخلافة «إن فذك كانت
مما أماء الله على رسوله ولم يوحف^(١) المسلمون عنه بخيل ولا ركاب، فسأله
فاطمة إياها فقار ما كان لك أن تسألينى وما كان لى أن أعطك، فكان يصع
ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا
ذلك بحيث وضعه رسول الله، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها
مروان لأبى وعبد الملك، فصدرت لى وللوليد وسليمان، فلما ولى الوليد سأله
حصته منها فوهبها لى، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى،
فاستجمعتها، وما كان لى من مال أحب إلى منها، فاشهدوا أنسى قد رددتها إنى
ما كنت عليه»

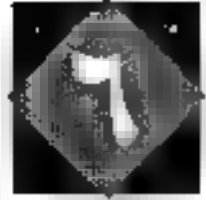
فى هاتين المسألتين ترى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على
شئون بنيتها والابتعاد من الحدة العمة. لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها
ووشيجة^(٢) قربها وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه،
واحداهما مم سميهِ نى لعة عصرها بالساسة العليا، والأخرى مما سميهِ
بسياسة الحكومة لمالية أو الاقتصادية، ولكل منها حواب متفرعة يعالجها
مؤرخ الحوادث والسياسة من نحوف أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهم
وفى غيرهم هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة، وما تترجمان
عنه حين نوحزه هو قوة إيمان سحقتها تثبت عليه و«شخصية» مستقلة لا يهمل
لها حساب

* * *

(١) يوحف أرجهت الفارس مرسه حكه لكى يعد فى السير

(٢) وشيجة الوشجة عرو الشجرة وما التف من الأشجار وبحروف يقال بينهم وشائج النسب.

وَفَاتُهَا



قلبا في «عبقريه محمد»

«حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن المهم وحذرت في تعليلها عقول الأساطير من أهر العلم والحكمة، وهو لا ريب يحرق على ماسور مطرد في جميع طبقات الأحياء، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسير عمقه ولا نريد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه»

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يحرق على سدة المكافأ والتعويض في معظم حالاته، فيقاس المنقص في جانب بالزيادة في جانب آخر، ويقابل الفصور في مزية من المزايا بالإتقان في مزية أخرى

* * *

فالأحياء السفلى عرصة للعطب لكثير في طهر الولادة والحضأة، فيقاس هذا أن الأحياء السفلى ترس درياتها بالألوف وألوف الألوف، فيبقى منها القليل الكافي لدوم النوع بعد قضاء الكثير

«والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في النطر الواحد، فيقاس هذا أن تطول حضانتها والعناية بها، وتحد من وسائل الصبغة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى

ويجب أن يريد لنسل حين تكون ريادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمته نوعه وضمان دوامه فإذا نبسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمته نوعه فقد يحور ذلك على نسله وينقص من قسمه في أبنائه كأنما خدمة النوع صربية مفروضة على كل فرد في صورة من الصور، فهذا أداها في صورة أعلى منها في الصور الأخرى أو كأنما هي مواهب وأوراق لا يستوعبها الفرد الواحد إلا بشئ عال يحسب عليه، ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الأنحاء

والإنسان أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر في
تحديد النسر وزيادة عدده

ههـ يحوز لنا أن نقول إن العظماء الذين حرموا البسل قد أدرا صريبتهم
بإصلاح شئون الناس فلم يبق من اللارم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الصريبه
من طريقة الدرية؟

إن قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة استقرسية التي أشرا إليها،
ولا يبع بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه، فعاية مبلغها
عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراحة ولا تفصى بنا إلى الحرم أو إلى
التغليب

فبعض لعظماء من أكبر خدام النوع لم يتروحوا، وبهم أرباء معطوم لا شك
في سيرتهم من هذه الناحية كعيسى عليه السلام

وبعض العظماء الذين تروحوا لم يرقوا الدرية، أو رزقوا ذرية كلها إناث،
أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا، أو عاشوا ولم يعمرُوا ولا كانوا على
حالة مستحبة من الصحة والحياة

وتواريخ العظماء في جميع نواحي العظمه، وفي جميع الأمم، وفي جميع
العصور، حافلة بأشواهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجمعها خليقة بالتأص
والمراحة، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء، ويدخل فيهم
العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون، ويدخل فيهم القادة
العسكريون. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن في بلد
قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه،
وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول
وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمي ومحمود سامي البارودي
وحافظ إبراهيم.

فإذا حار لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأص معزاها وجز لنا أن نفهم أن
إصلاح شئون النوع الإنساني صريية تعنى عن صريية الدرية في بعض الأحوال،
فأين نربا نحد تلك الصريية في أرفع حالة وأعلى قيمة إن لم تجدها في رسالة

ببرية تتناول الأحبال وتتناول الملايين في كل حين؟ وأي أبوة روحانية تعنى عن أبوة اللحم والدم كم تعنى أموة اسى لدى متكبر بتردية لأرواح في أمته، وفي أم لا يلفها في رماه، وأمم لا تزال تستجد بعد رماه إلى أقصى الزمان؟

مذكر هنا حين يذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأيووة البوعية، يرى تكافؤاً في الحائنين حديراً بالملاحظة والاعتبار»

* * *

نعم ونذكر هذا حين مذكر وفاة الزهراء في رهرة الشباب، في الثلاثين أو ما دون الثلاثين

مات الذكور من درية محمد صغاراً لم يحاوروا سر برصاع، وعاش الإناث من درية ولم يررق طول العمر ومهن من لم تررق قوة البنية في عقوان الشباب.

وكانت الزهراء بحيلة سمراء، معارج لونها شحوب في كثير من الأوقات، وقد رأها النبي عليه السلام في مرض وفاته فقال لها إنها أسرع أهله لحوقاً به، فلم تمص ستة أشهر، وقيل أقل من ذلك، حتى لحقت به في تلك السر التي تستقيب فيها الحياة

وكانت تشكو حيناً بعد حين، ويعودها النبي يواسيها في مرضها فإذا هو يواسيها كذلك في حاجتها، رارها يوماً وهي مريضة فقال لها

«كيف تحديك يا بنتي؟» فقالت «إني لوحدة» ثم قالت: «إني لا أريدني أني ما لي طعام آكله فاستعبر عليه السلام وقال: «يا بنتي» أم ترصين أنك سيدة نساء العالمين؟»

ورارها يوماً وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تحرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لمعيم الآخرة»

ولم يكن صلوات الله عليه يصر على فاصمة بما يملك من الأنفال، فكان يخصصها بالقسم الأوى من حصته كلما عرق ررقاً بين ذويها وزوجاته، وبكها كانت فاقة تعمهم جميعاً حين لا يجد النبي ما يفرقه بينهم، وقد شك زوجاته

(١) الأنفال، النمل بفتح الحين النسيمة والهيئة

تلك الفاقة فخيرهم بين التسريح ليدعمن بالحياة الدنيا وريستها، أو يردن الله
ورسوله فيصيرن على ما هو صابر عليه!
الله أكبر!

* * *

مثل محمد بعلو على إشفق المشفقين ومن كان في قدرته أن يدعم من الدنيا
بما يقطع قلوب الحاسدين حسداً، ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الإشفاق، فذلك هو
الإعظام عاية الإعظام، وذلك هو المرتقى لدى قين فيه
وبعيد بلوغ هاتيك هذا

تلك عليا مراتب الأنبياء

أر محمدا يبكي، لأنه يرى أحب الناس وأقربهم منه حائعه مرهقه ثم لا يملك
لها ما يشبعه ويعفيها من عبثها، وهو يملك كل شيء في الحريرة العربية
ويسأل السائلون من رعاية المعطلين والمعصبين أعداء كل دين «وما يرهمن
النبوة عند محمد»^{٩١}

الله أكبر إن لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أي شيء يكون؟

* * *

ولم يكن بالزهاء من سقم كامن يُعرف من وضعه، فإن العرب لو صافقوا وإن
من كان حولها من آل بيتها بمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم، فما
وقعنا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شكواهم على شيء يشبه أعراض
الأمراض التي تذهب بالناس في مقتل شيب، وكل ما يتبين من كلامهم أنه
الجد والصعف والخرن، وربما حتمع إليها إعياء الولادة في غير موعدها، إن
صَحَّ إنها أسقطت «محسناً» بعد وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار
ويعود فنقول إنها صريخة النبوة، وكم للهداية من صريخة تصاعف على الهداة
مرات بعد مرات!

* * *

وحصرها الموت وخذلتها جوارحها، وعريمتها في مواجهة اموت حاضرة لا
تخذلها، فتولت أمر عسها وحملها على النعش بنفسها، وقالت لصاحبها أسماء

بنت عميس بعد أن اعتسلت كأحسن ما كانت بغسل «يا أمه» ثنيي بثيابي
 الحدد» فلبستها ثم قالت: «قد اغتسلت، فلا يكشف لي أحد كعبا»، وشكت بحوي
 جسمها فقالت لصاحبها «أستطيع أن تواريني بشيء؟» قالت «إني رأيت
 الحشرة يعملون السرير للمرأة ويشدون العشب بفوانم اسرير» فعمل لها نعشها
 قبل وفاتها، ونظرت إليه فقالت «سترتموني سركم الله» وتبسمت، ولم تر
 مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها

* * *

وكانت وفاتها، على القول الأشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة
 إحدى عشرة للهجرة، ودفنت ليلاً حسب وصايتها كما دهن رسول الله ﷺ
 في كل حين صورة للأبوة الكاملة المقدسة يتخضع بتقديسها المؤمنون كأنما هي
 آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى
 فإن تقديسها في المسيحية صورته مريم بعداء، ففي الإسلام لا حرم تقديس
 صورته ما طمه البتور.

* * *

(١) كعب الكعب بمحيط الحبيب والباحية وهو بعيد في كعب الأمير أي في ظله وكعب الله حوره وشهره



شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ، لأنها بنت نبي، وزوجة إمام، وأم شهداء.

ولكن لا يتضح هذا الوضوح ولا بين هذا البين، أنها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصي» أو بصفته التي كان لها أثر في حوادث التاريخ.

وهذا لدى من أحب أن يقرره في الكتابة عن الزهراء، فهي أصل قوي من أصل الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أحياناً طويلاً ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا، وفيما يلي من العصور.

لم يعرف التاريخ نظيراً بثبات بني علي وعاطمة على حقهم في الإمامة وفي الخلافة.

حاربوا فيها رما، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس في فصلهم عليه، كبريد بن معاوية، فأبقوا أن يتركوها استخداء وحصوناً، وحاربوا فيها كما حاربوا، وصعدوا للطلب الحثيث طالبين ومطالبين مائة سنة، ثم مائتين، ثم ثلاثمائة سنة، حتى راس لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية.

لولا خصال فيهم بعين على هذا الضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات، ولا استطاعوا أن يصعدوا للعسف والعنت من بني أمية ثم من بني العباس، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وتباع، وقد حدوا غاية الحد في كمالهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان، وصنعوا بهم ما كان خليفاً أن يستأصمهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم.

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة به للحاكمين المسيطرين، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكبروا للرمح ويسلموا للسيف، ويقعدوا مع الخالفين. ولولا خصال فيهم لما كان هذا منهم.

عَازِذَا كَانَ مَرَجَعُ هَذِهِ الْخَصَلِ إِلَى وَرَاثَةٍ، وَلَا يَدُلُّهَا مِنْ نَصِيبٍ مِنَ الْوَرَاثَةِ، فَقَدْ وَرَثُوهَا عَنْ فَاطِمَةَ كَمَا وَرَثُوهَا عَنْ عَلِيٍّ، بِنِ هِيَ إِلَى مِيرَاثِهِمْ مِنَ الزَّهْرَاءِ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى مِيرَاثِهِمْ مِنَ الْإِمَامِ

بَعْضُ الْأَخْبَارِ يَقُولُ إِنَّ صَحَّحَ، وَإِنْ لَمْ يَصَحَّحْ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ خَيْرُ الرِّوَاةِ الدِّينُ قَالُوا إِنَّ عَلِيًّا جَامِلٌ فَاطِمَةُ فَلَمْ يَجَايِعْ أَبَا بَكْرٍ إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِهَا

إِنَّ صَحَّ هَذَا الْخَبْرُ أَوْ لَمْ يَصَحَّ فَدَلَالَتُهُ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ اعْتِقَادُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ أَنَّ أَقْصَى قَضِيَّةِ الزَّهْرَاءِ وَأَنَّ الْإِمَامَ يَحْمِلُهَا فَلَا يَعْصِيهَا، وَأَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ الْخِلَافَةَ أَحَقُّ بِأَنَّ نَظْمَهُ مَعْرُوفٌ بِحَقِّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْرِفْ لَهُ هَذَا الْحَقَّ فَمَا هُوَ بِأَحْرِصَ عَلَى الشُّغْرِ بِهَا وَالتَّدْبِيرِ لَهَا وَلِأَسْعَى إِلَيْهَا

* * *

وَفِي غَيْرِ هَذَا الْخَبَرِ مَا يَدُلُّ هَذِهِ الدَّلَالَةَ، وَرَبَّمَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الْأَخْبَارِ مَا يَعْبِرُهَا الْمَوْخُ وَلَا يُلْقَى إِلَيْهَا بِالْأَلَا، وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ أَكْبَلُ مِنْ كَثِيرٍ، كَالْخَبَرِ الَّذِي رَوَى عَنْ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ بَعْدَ طِفْلِ صَغِيرٍ

رَوَى أَنَّ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَامَ عَلَى الْمَبْرِ يَحْطُبُ النَّاسَ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ حَتَّى سَمِعَ وَسَمِعَ بِحَاصِرُونَ مَعَهُ صَوْتًا بِحِيلًا يَهْتَفُ «لَيْسَ هَذَا مَبْرًا أَبِيكَ، أَمَزَلُ عَنْ مَبْرٍ أَبِي»

وَالْتَفَتُوا فَبَادَ بِالصَّائِحِ هُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَلَمَّا بَلَغَ الثَّامِنَةَ، فَابْتَسَمَ الصَّدِيقُ وَقَالَ وَالْحَقُّ يَتَّبِعُ فِي نَفْسِهِ «أَبِي بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ؟ صَدَقْتَ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِأَبِي مَبْرٍ، وَإِنَّهُ لَمَنْبَرُ أَبِيكَ»

وَسَمِعَ عَلَى بَدْخَبَرٍ مَأْرُسَلٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَسُولًا يَقُولُ لَهُ «غَفَرَ مَا كَانَ مِنَ الْعِلَامِ، فَإِنَّهُ حَدَّثَ، وَلَمْ نَأْمُرْهُ»

قَالَ أَبُو بَكْرٍ «إِنِّي أَعْلَمُ وَمَا أَتَهَمْتُ أَبَا الْحَسَنِ»

وَلَيْسَتْ الزَّهْرَاءُ وَلَا رَيْبٌ هِيَ ابْنَتِي أَمَرْتُ الْعِلَامَ الصَّغِيرَ أَنْ يَقُولَ هَذَا الْمَقَالَ وَلَكِنْ لَصَقْلُ بِهِمْ عَنْ أُمِّهِ فِي هَذِهِ السَّرِّ مَا يَعْنِيهِ عَنِ الْأَمْرِ وَالْإِيحَاءِ، وَلَعَلَّ الْحَسَنَ كَانَ قَدْ سَمِعَ نَقَاشًا يَتَكَرَّرُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَوَقَرَفِي نَفْسُهُ أَنْ يَثُورَ تِلْكَ الثُّورَةُ الصَّغِيرَةُ، ثُمَّ نَهَى عَنْهَا فَلَمْ يَعَاوِدْهَا

* * *

في حلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه،
أو يزداد عنه فلا ينكسر عنه على رعم

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، وكانت مفضولة على يقين التدين،
وكانت ذات إرادة لا تهمل في حساب شأن من شئونها فظهر منها في المواقف
القليلة التي بقلت عنها أنها كانت ذات إرادة لا تنسى في الحساب
كمن من اعتزازها بالانتساب إلى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها،
وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم، ولم يكن أحد إليهم من أن يعار لها إن
أسباط رسول الله يشبهون رسول الله

وكانت فطرة التدين فيها وراثية من أبوين كان حسبها ما ورثته من خاتم
الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة، ولكنها أضافت إليه ما ورثته من
أمها، أمها بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن عبدةً منه على الكعبة، وابنة عم
ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الحاهلية حتى فرغ له حياته، غير مدعو
ولا مأمور

* * *

ومن فطرة التدين في وريثة محمد وخديجة أمها شديدة التحرج^(١) فيم اعتقدته
من أوامر الدين، حتى وهمب أن أكل الطعام المطبوخ بريح الوضوء، يظهر ذلك
من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت «دخل رسول الله ﷺ فأكل
عزاً^(٢) فجاء بلال بالآذان، فقام ليصلي، فأخذت بثوبه فقلت يا أبا إلا بوصاً
فقال مم أتوصاً يا بيه؟ فقلت مما مست النار فقال لي أليس أطيب طعامكم
ما مست النار؟»

فهى فيم تحمله تتحرج ولا تترخص^(٣) وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة
معها

(١) التحرج. تحرج. من عدلاً يتحرج به من الحرج أي الإثم

(٢) عزاً: العرق يفتح العين وتسكين الراء. العظم أخذ معظم لحمه بكسر ويطيخ ويؤكل ما عليه من اللحم
الرفيق

(٣) تترخص. الترخص في الأمر التسهيل والتيسير خلاف التشديد

وقد ذكر غير واحد من الصحابة، وذكرت السيدة عائشة، أنها كانت أشبه
الناس بمحمد في مشيتها وحديثها وكلامها، وزادت عائشة فعالت ما رأت
افضل من فاطمة غير أبيها، واستعربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين
رأتها تنكح ثم تصحك إلى حور رسول الله ﷺ في مرض وفاته، ثم علمت أنها
صحكت، لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقاً به عما قريب.

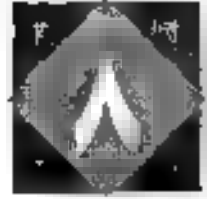
أما به كانت رضى الله عنها ذات إرادة لا تهمل فقد بدا ذلك في مرورها،
وفي محادثتها لزوجه، ومحادثتها لأبى بكر وعمر، وفيما كن يتوجاه على من
مرضاتهن بصدد المبايعة قبل وفاتها.

وقد يكون من دلائل الإرادة في المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر
الكلام، وقد كان من عادة الرهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل، وإياها لا تعص إلى
الحديث، فيما تعلم فضلاً عما لا تعلم، ولهذا نحصرت أحاديثها عن أبيها فيما
كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد، ولم ترد عليه.

ولا يحسى أن الرهراء قد عوصرب^١ وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين فإذا ظهر
منها هذا الحد وهذا اليقين وهذه العرة وهذه الإرادة وهي في تلك السن المبكرة
مداك ولا شك دليل على قوة كامنة يرحح لها حين يفسر المفسرون خلأئى بيبها
وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين.

* * *

(١) عوصرت: توقيت مبكره



الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة سبابة يعيها النسب لأنها تعتمد عليه في مفاحرها كما تعتمد عليه في مصاترها، فهو لدى يعين لها أصول مائلها وأصول دوى الرئاسة فيها، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ربحسبونه على جريرة^(١)، ومن يحق بهم عاره ويبرأون منه أو يحلعونوه، فالخليع عندهم من لا خلاق^(٢) له، فلا هو يبالى بشيء ولا يبالى به أحد، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

إن الخليع عندهم هو المطيع عن نسيه

ولهذا حفظوا أسابهم في الحاهلية ما استطعوا وحاءهم الخطأ فيها من تقدم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة.

وبعد الإسلام وحب حفظ الأنساب ولجأوا إليه في تدوين الدواوين كما لجأوا إليه في ميادين القتال، فكلما حمى وطيس^(٣) القتال يودى في انقوم اندسبوا^(٤) ينسحق المرقد من الهريمة التي يلحق عذرها به وبدريته ما بقيت لهم سيره في ذكره

* * *

وعظمت العناية خاصة بذرية النبي عليه السلام، صوب للنسب الشريف ودفعاً للأدعياء من طلاب الخلافة، فلم يقع لبس قط في نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الإسلام ولم يدهس منهم قط إمام مشكوك في نسبه على عهد الدولة الأموية، ولم يكر الشك في النسب مطع في دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية، ولم يرل أمرهم كذلك إلى أن قامت بهم دولة بالمعرب وسميت بالدولة لفاطمية. أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدرله العباسية يافشونهم الحجة في حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم إلى السيدة فاطمة، ولا يكررون عليهم صحة الانتساب إليها رضى الله عنها

(١) جريره الدب والجمابة

(٢) لا خلاق له لا نصيب له من الخير

(٣) وطيس المعركة القنور من حديد، وحمى الروطيس اشسب الحرب

من ذاك ما روى عن المأمون أنه قال يوماً لعلی بن موسى الرضا «بم تدعون هذا الأمر؟ قال بقرابة علی من رسول الله ﷺ وبقرابة فاطمة رضي الله عنها، فقال له المأمون، إن لم يكن هاهنا إلا القرابة فقد خلف رسول الله ﷺ من كان أقرب إليه من علی أو من في مثل قدره، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعلی في هذا الأمر حق وهما حيّان، فإن كان الأمر كذلك فإن علیاً قد ابترهما حقهما وهما صححان واستولى علی ما لا يحب له»

قال رواية هذا الحديث «فما أحابه علی بن موسى بشيء».

وظاهر أن علی بن موسى قد لزم الصمت هنا علی حد قول أبي العلاء

تَلَوْا بِأُطْلَا وَجَسَلُوا صَارِمًا

وقالوا صدقنا؟ هقلنا نعم

* * *

والأفما كان لحجة من أبناء علی وفاطمة - وقد رزقوا المنس ولعصبة أن يحجز في هذا المقام عن الكلام الذي يقل في الرد علی كلام المأمون، وأقربه علی اللسان أن علیاً إن كان قد استولى علی حقه فهم ورثته، وإن كان قد استولى علی غير حقه فهم أصحاب الحق، وقد سمع خلفاء بني العباس كلاماً كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين، وأيسره أن أحداً من حدود بني العباس في حياة الحسن والحسين لم يطلب لخلقه حين طلباه

إلا أن دعاة الدولة العباسية إنما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل حجة لمأمون ولا يتعرضون بصحة النسبة ولا يحسرون علی محاربة الولاء للمتسبين إلى الزهراء، إلا أن ادعوا عليه أنه حمر السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان

قال النعبي كان بين شريك القاصي والربيع صاحب المهدي معارضة، فكان الربيع يحرم عليه المهدي فلا بلغت إليه حتى رأى المهدي في محامه شريك القاصي مصروفاً وجهه عنه، فلم استيفد من يومه دعا الربيع وقص عليه روياء فقال يا أمير المؤمنين! إن شريكاً محالفاً لك، وبه فاطمي محض قال المهدي علیّ به! فلما دخل عليه قال له يا شريك بلغني أنك فاطمي قال شريك أعبدك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي إلا أن تعني فاطمة بعت كسرى قال: ولكني أعني فاطمة بنت محمد ﷺ قال شريك أسلحها يا أمير المؤمنين؟ قال لمهدي معاذ الله قال فنادا تقول فيمن يلعبها؟ قال عليه لعنه الله؟ قال فالتعن هذا - وأشار إلى الربيع فإنه

يلعبها، قال الربيع والله يا أمير المؤمنين ما أتعها فقال شريك يا ماجن، فما ذكرت
 لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجلس الرجال؟ قال المهدي، دعني من
 هذا، فإني رأيتك في منامي كأنك مصروف عني وقفاك لي وما دك إلا بخلافك عني،
 ورأيت في منامي كأنني اقترن رديقاً، قال شريك إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست
 برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام
 وإن علامة الرديفة بيعة قال وما هي؟ قال شرب الحمر والرشى هي الحكم ومهر
 البغي قال صدق والله يا أبا عبد الله أنت والله خير من الذي حسني عليك»

* * *

وحدث مثل هذا في معارص كثيرة، فوشى بأساس أنهم يوالون أبناء فاطمة
 فلم يحسر الحلفاء على المساس بهم، واضطروا إلى التعلل لهم بغير تلك العلة
 ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع
 الاعتراف بسبب أصحب الدعوة، فانتقلوا من المناقشة بالحنة في حق العم وابن
 العم، واموازنة بين حق العباس عم النبي وحق علي ابن عمه، إلى إنكار النسب بته،
 وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين في الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع
 اللبس في الكنى ولألقاب، فطعنوا في انتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة، وأدعوا
 عنهم ذلك المشور الذي سيأتي ذكره في القسم الثاني من الكتاب، واشترك في هذه
 المباديات "أساس من علماء السابيين شملهم عوية السياسة كما شملت غيرهم،
 وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم
 مثا هذا أن صاحب كتاب حمهره الأنساب، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم، لم
 يسلم من فتنة هذه الغواية، يقال وهو يتكلم عن درية إسماعيل بن جعفر الذي ينسب
 إليه الفاطميون ويسمونه من أجل ذلك بالإسماعيلية «و دعى عبده الله القائم بالمغرب
 أنه آخر نحر البعير هذا، وشهد له بذلك رجل من بني لبغيص وشهد له بذلك جعفر
 بن محمد بن الحسين بن أبي لحر علي بن محمد الشاعر بن علي بن إسماعيل ابن جعفر،
 ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر، وكل هذه دعوى مفتوحة
 لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين، وهذا كذب فاحش،
 ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يحفل أهله إلا حاهر»

* * *

(١) المباديات، المساعدة، مكافحة العدو وإعلامه بالعزم على القتال.

ونحن نحض ابن حرم بالذكر في هذا المعرض لأنه مثل لتفصيل امتقابيين
فيف يوجب الثقة وما يوجب الشك عاية الشك في مؤلف واحد وسائة واحد
فعلم بن حزم بالأسانيد والأنساب معروب، ولكنه في هذا المعرض خاصة
عرصة للهوى كأشد ما يكون انهوى، حتى ليكون تكديبه لرواية داعية من دواعي
احتمالها وقبولها

كان ابن حرم أموي غالب في التشيع للأموية، وكانت دولتهم في الأندلس على
خطر من لدعوة الإسماعيلية، وبلغ من كرهته للإسماعيليين أنه تحول من
المدن لسامعي إلى المذهب لظاهري أي المذهب الذي يأخذ بظاهر النص
ويرفض التأويل لأن مذهب الإسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الإمام
بل قد بلغ من كراهته القوم أنه لا يطبق أن يذكر ابن حرم من مذهب بلقبه المتعارف
عليه، فيلقبه بالمعصص بدلاً من الحبيب، وبعده لم يصنع كتابه في حمهرة أنساب
العرب إلا لبثت حق بني أمية في الخلافة، لأنهم من قريش، فصعد بحق الخلافة
إلى حد الأمويين والهاشميين وقال في مقدمة كتابه «ومن المعرض في علم النسب
أن تعلم المرء أن الخلافة لا تحور إلا من ولد فهر بن مالك بن البصر من كنانة، ولو
وسع حهن هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحر له، وهذا لا يجوز أصلاً» وقد ترقى
ابن حزم من الحديث عن العاطميين إلى المفاشة في معنى الحديث القائل أن
فاطمة سيدة النساء وبه لا يعنى أنها أفضل نساء العالمين

* * *

ونحن ننزه ابن حرم عن تعمد لاقتراء، ولكننا نقول إن هو قد خنح به إلى
قبول ما ليس بحجة في إثبات نسب أو دفع نسب، ولولا ذلك لوقف على الأقن
موقف التردد بين النفي والإثبات

وفيما يلي كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفاصيل، ويسلف القول في
تلخيصه فنقول إنا لا نرعم أسا وفقاً على الأدلين القاطع الذي يثبت نسب عبيد
الله رأس الدولة العاطمية ولكننا لم نقف على دليل قاطع يعنى ذلك النسب،
ووقعنا على شبهات كثيرة توجب الشك في مصاعن الصاعنين، وهذه الشبهات في
روايات بسابة كابن حزم بمودح لما وقفنا عليه

* * *



القسم الثاني

... والفاطميون

■ الفاطميون ...

■ النسب ...

■ الباطنية ...

■ الباطنية الفاطمية ...

■ حسن بن الصباح ...

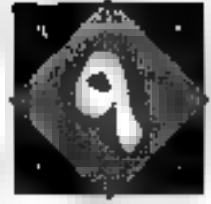
■ السرية الباطنية ...

■ بناء وهدامون .. ومهدومون ..

■ المعز لدين الله ...

■ حضارة متحضرة ...





الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون، ولكن اسم الفاطميين يطلق من تاريخ الدول على أبناء إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق، ويسمون من آخر هذا بالإسماعيليين.

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحياناً باسم آل البيت. فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليه اسم العلويين.

وحاء الفاطميون ففصلوا الأسماء إلى الزهراء لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي ﷺ، وأنهم أبناء ابوصلى على بن أبي طالب، ولكن العباسيين يمارعونهم دعوى الوصاية ويكررونها ويقولون إن الانتساب إلى النبي من حاشى عمه العباس أقرب من حاشى على ابن عمه أبى طالب، ومن آخر هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم، لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون.

أما تغليب سم الإسماعيليين عليهم فمرجعه انماؤهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقولهم إنه هو الإمام بعد أبيه، وبهذا الاسم يتميرون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين، وهم بزية موسى الكاظم، وهو الأحق بالإمامة في مذهب الإماميين الإثني عشرين.

وقد كان الإمام جعفر الصادق وصى بالإمامة بعده لابنه الأكبر إسماعيل، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم، وقيل في أسباب ذلك إنه علم أن إسماعيل يشرب الخمر وقيل إن إسماعيل مات في حياة أبيه فانتقلت ولادة العهد إلى أخيه.

أما الإسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز، لأن الولاية أمر من الله يلقاه الإمام المعصوم والبداء لا يجوز على الله ويعنون بالبداء أن يبدو الله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك.

ومن الإسماعيليين من تنفى موت إسماعيل في حياة أبيه، ويقولون إنه شوهد بعد تاريخ الإسهاد على وفاته، وربما أشهده أبوه على وفاته خوفاً عليه من لعيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين.

للدعوة، واستدلوا على هذا بالإشهاد على وفاته وتوقيع اشهود عليه، إذ لم تحر العادة بمثل هذا الإشهاد لولا الحيلة ولتقبة

واختلاف بين الإسماعيليين وبين سائر العاطميين قائم على إمامة إسماعيل، والإماميون انديس لا يسلّمون الإمامة لإسماعيل وذريته طوائف متعددة، أهمها وأكبرها صائفة الإماميين المعروفين بالاثني عشريين، لأنهم ينتهون بالإمامة إبي محمد المنتظر بن الإمام حسن العسكري، وعندهم أنه سيظهر في زمانه الموعود، ولهذا يدعون بتعجيز فرجه كلما ذكروه

ويتفق الإماميون على اعتقادهم عصمة الإمام في تبليغ شئون الإمامة، لأنه مؤن السؤال والفتوى في أحكام الدين وأسباب، فلا يجوز الخطأ عليه في هذه الأحكام

ويضيف الإسماعيليون إلى أسباب العصمة عدة التأويل، فإن أحكام انديس عندهم لها ظاهر وباطن. ولا يعلم بأوحيها غير الله والرسحين في العلم، والأئمة هم الراسخون في العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمرون

ولهذا يسمى الإسماعيليون باباطينيين، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب، بل يقولون إن كل موحود على الأرض له نظير في لعلك الأعلى، وإن مقادير هذه الموحودات تابعة للمقادير التي تحرى على نظراتها في السماء

ولم استتر الأئمة شاع بينهم علم الحورم ولربصة والفلسفة على العموم، وكان الإماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بإلهامه وطلاعه على أسرار كتاب الحفر وما إليه من كتب النجوم، ولكن الأئمة الإسماعيليين أمعنوا في دراسة هذه العلوم، لأنهم لأنوا بالخفاء في عهد انتشارها وازدهارها، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم الراسخ بشئون الإمامة في الدنيا والدين، فإذا سأل اسائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الإمام المستور الذي يعلم مواطن السر وانحهر ويتجيز أوقات لعلك لإظهار ما خفى من أمور الدعوة وأمور الإمامة، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه في خصائص الأعداد، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب اسجوم سرًا خاصًا في عدد السبعة وعدد الاثني عشر، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد قمحات الوجه، كما يستشهدون عليه

بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد اسباط بنى إسرائيل، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتحكيم على عدد الأئمة، هو سبعة أم اثنا عشر ولكل منهم فيه كلام طويل

وللإماميين مروق بسطورها بين لنبي والإمام والحنة والنقيب، فالنبي يبعث في زمان بعد زمان ولإمام قائم في كل زمان وقد يكون الإمام إماماً مستقراً فهو صاحب الحق في التوصية بخليفته من بعده، أو إماماً مسودعاً فهو يحمل أمانة الإمامة لصورة موقوفة، ثم يردّها إلى صاحبها ولا حق له في التوصية لغيره أما الحنة فهو لازم في الخفاء إذا كان الإمام طاهراً في العلانية لأن الإمام انطهر عرصة للصناعات فلا بد معه من حنة يرجع إليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن صناعات السياسة، أما إذا استقر الإمام فلا بد له من حنة ظاهرة وقد يسمون الإمام بالباطق أو بالصامت تبعاً لظهور ولخفاء ولمحاضرة بالحكم والتأويل فيه أما النقباء فالعالمات أنهم دعاء أو وكلاء، ولا بد لهم من أئمة يرجعون إليهم في كل زمان

أعلنت وفاة إسماعيل في حياة أبيه كما تقدم، فاعتقدت الإمامة بعده لابنه محمد، ورتحل محمد من الحصار إلى الري، إذ لأنه لم يطق مفاضة عمه موسى الكاظم على «عامة العلويين» وإما لأنه أثر الأئزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين، وقد لقب بالإمام المكتوم، لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر كلما تنبّهت إليه العيون ولاحقته الطيور، ثم صاق المشرق كله بحلفائه فحرره عبيد الله إلى المغرب وكان أول من نوّدي له بالخلافة الفاطمية

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق أما القائلون بانتمائه إلى ميمون انقذاح - كما سيلي - فهو في رعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

ويوفق المؤرخ لهدى «مأمور» بين الروايتين توفيقاً محتملاً حد الاحتمار فيقول إن محمداً المكتوم كان نحفي نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته

(١) كتاب الجدل والمناقشات في العنماء الفاطميين

polemics on the origin of the Fatimid Caliphs

وان اسم «ميمون» كان من الأسماء التي «نتحها في حال استتاره، وانقذاح هو لقب الطبيب الذي يعالج العيون.

ولا نهاية للروايات والتخريجات التي تغل سحره من المشرق إلى المغرب فمن الرواة من يزعم أنه عم بتأمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيماً بحوار خمص ورحل إلى مصر وهو يوري بالرحلة إلى اليمن، ومن قائل إن بعض حلساء الخليفة العباسي ممن يدينون بامذهب الإسماعيلي سراً قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر إلى تحديره ومن قائل إنه تلقى البشارة من كبير دعائه في المغرب بانتشار البيعة به بين القبائل المغربية فرحل إلى المغرب ليتولى الأمر بنفسه في هذه الفترة الحاسمة وتتفق الروايات على أنه حينما سافر إلى مصر واسقل منها إلى المغرب كان مطارداً وكان على رأسه جعل^(١) لم يأتى به حياً أو ميتاً حيث كان

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة في المغرب إلى أبي عبدالله الصنعاني من صنعاء اليمن، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن ركري، وكان من ولاية الحسبة^(٢) في بغداد.

جاء في وصفه من كتاب البياس المغرب في أخبار المغرب لابن عداري المراكشي وهو من أعداء الإسماعيليين - «فاختاروا منهم رجلاً ذا فهم وفصاحة وجدل ومعرفة يسمى أبا عبدالله الصنعاني فسار أبو عبدالله هذا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من سحج تلك السنة من أهل المغرب ويدوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل اسلك بضعيف الحير ورأى في الموسم قوماً من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفته، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه ولم يزل يستدرحهم ويحلبهم بما أوتى من فصل اللسان والعلم بالحدل إلى أن سبهم عقولهم بسحر بيده، فلما حار رجوعهم إلى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقل لهم أنا رجل من أهل العراق، وكنت أخدم السلطان، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال، فلم

(١) جعل الحسن (بالضم) أجر العامل، وما يعطاه المحقق يسعين به على جهاده

(٢) النسبة المال الذي يأخذه محتسب البلد على المورسات والمكيلات

أر لذلك وجهًا إلا تعليم القرى للصبيان، فسألت أين يتأتى ذلك تأتي حسناً فذكر لى بلاد مصر، فقاموا له وبحر سائرهم إلى مصر وهى طريقاً مكن فى صحبتنا إليها، ورعبوا منه فى ذلك، فصحبهم فى الصريق فكان يحدثهم ويميل بهم إلى مذهبه ويلقى إليهم الشئ بعد الشئ إلى أن أشربت قلوبهم محبته، ورعبوا منه أن يسير إلى بلادهم لنعلم صبيانهم، فاعتذر بهم ببعث الشقة، وقال لهم إن وجدت بمصر حاجتى أقمت بها، وإلا فربما أضحكم إلى الفيروان، فلم وصوا إلى مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بعيته، ثم احتمعوا به وسألوه فقال لهم لم أحد فى هذه البلاد ما أريد، ورعبوه أن يصحبهم فأنعهم لهم بذلك «

ولا يتسع الكلام فى هذا المحال لسرد أعمال أبى عند الله فى المغرب، فلقى عنه ما هو الإشارة إلى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى بقصدوها بالدعوة، وأور هذه الأساليب أن يكون الداعية مطبوعاً لا طالباً وأن يكون له حمة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله إذا استطاع وقد سار أبو عبيد الله لشيعة على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال إليه قبيلة كتامة القوية بعدها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وحرد السيف وهزم دولة لأغلبية أعوان العباسيين وصمم لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل إلى حبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك بصول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدي وخططه التى رسمها لإقامة عرشه فى إفريقيا وبسط كلمته من ورائها، لى الأقطار الإسلامية، فإن ملك المهدي فى المغرب قد دام أربعاً وعشرين سنة إلى أن تولى (سنة ٣٢٢ للهجرة) فحلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المصور وخلف المصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين إلى خلافة (سنة ٣٥٦ للهجرة) فقاموها كمعادتهم مطلوبين ممهداً لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

* * *

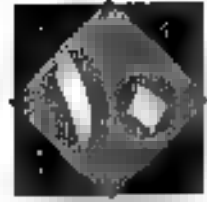
إن تاريخ الدولة العباسية جدير أن تفرد له مجلدات الضخام، لأنه تاريخ يعنى عن التوريق، إذ كانت هذه الدولة نموذجاً يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة

فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول إسلامية وأحبيه تحاربها وتخشى عاقبة قبورها، وأسست حقها على دعوة يتألب الحصوم من حولها على إنكارها، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائط إلى هذا بقرن العشرين فمررت تلك الوسائط من التخدين و «الطابور الخامس» كما يسمى فى العصر الحديث، ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والفصص فى نشر الدعوة بدهره والخفية، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وتربيت الأدوار المنظمة لإبهار سياسة بعد أخرى، ومنها الموكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية، وكانت تنابر على الدعوة ولا تهتم معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الحشوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمجالات المحاصرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

* * *

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والاحيلة، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وبديرياته ومصادفاته وسبقا فى صدد الإفاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها، ولكننا بطرق منها فى هذه الحالة ما به علاقة بالانتساب إلى الزهراء وما له علاقة بأثارها الباقية فى هذا البلد، لأنه البلد الذى شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأهم عهودها، وكانت مخلعاتها عنه أسعى المخلعات فى تاريخها الحديث

* * *



النسب

الدعوى المنتظرة هي دعوى الدعوى، وهي كذلك ومن أجل ذلك أضعفها وأولاهما بالتشكك والمراجعة

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تملئها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية، وهي قوية لأنها لا تأنى عقوا ولا يكتفى لمدعون فيها بإبدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الإعراض عنها، بل هم يدعونها ويحثون على إيرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام الساتع المحقق، ثم يكررونها ويلحون في تكريرها وسحبيون الفرص لشرف في مطر الإصغاء إليها والرغبة في إثباتها

وإذا كانت البواعث التي تملئها متعددة متحدة كان ذلك خليقاً أن يريدها قوة على قوة وإلحاحاً على إلحاح، فهي تتردد من جهات كثيرة وترجع إلى الظهور كرة بعد أخرى، كلما خيف عليها أن تضعف، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات إليها

إن الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا

وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة

لأن البواعث التي تملئها تريب السامع حين يكشف له، وقد يكون الإلحاح فيها مشككاً لمن يسمعها وكاشفاً للعرص ولهوى من ورائها

وإذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التساقض والاختلاط إلى الروايات والأقوال، فلا يتفق من وجوها على اختراعها ولا على نقلها، ومن لم يكن منهم محترفاً لروايته لم يحهد ذهنه في التوفيق بين المقائض والتقريب بين الأسيد، فتصطب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتينا القوة والمثابرة لهذا السبب، وتحسر من هذا كما تكسر من هناك

* * *

وقد كان اتهام الفاطميين في سبهم دعوى منتطرة، وكانت البواعث إليها متعددة متجمدة، فلا جرم تكون في وقت واحد أقوى الدعوات، ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات.

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على السب وكانوا يهددون بمساعيهم في طلب الخلافة خصومًا كثيرين يملكون الدول في المشرق والمغرب ولا يريدون النور عما ملكوه، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذي يعتمدون عليه

فلم يكن اقرب إلى الدهر من مهاجمهم في سبهم وتحريرهم من الحجة التي يؤيدون بها مسعاهم، فهذه هي الدعوى لمنظرة التي تعدد بواعثها في المشرق والمغرب وتوافقت الأعراض على ترويحها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من سب الفاطميين وكلهم ذرو سطان وذوو جرعة واعتد، ومن ورائهم من يربحون في بقائهم أو يتلقون سعواهم بالتصديق والإيمان

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على اتسابهم إلى النبي ﷺ، وكان هذا السب حجة معتمده لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الإسلامية الذين يسرى بينهم دعوى أن البيت، غير مستثنى منهم أتبع الدولة العباسية في ذلك العهد على الخصوص وهو عهد اسقص والأدبار لدى يكثر فيه صلاب الروايات أو طلاب العزل باحق وبإسافل، وعلى الإنصاف الراضع أو على الحور الصراح

كان مصير الخلافة إلى الفاطميين نديراً برؤا عروش كثيرة، منها عروش العباسيين في بغداد والإخشيديين في مصر والأعاليبة في إفريقية الشمالية والأمويين في الأندلس، والأمراء الصغار المستثنى في هذه الرقعة هه وهناك ممن بطب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم البدين والاسقام

وكان هؤلاء السالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا لعباسيين، ولكن العباسيين في ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من سب الفاطميين، يعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون.

عندما ضعفت دولة بني أمية قويت دعوة أن لبيت التي كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا برسام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين أنهم كانوا يدعون إلى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم ابن البيت في رأى اتباع الدولة الجديدة وبلغ من إيمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا الحرم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلويين، كما فعل الرشيد والأمين ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لحا الأئمة العلويون إلى لاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة هي الإمام امستور، ثم شاعت الدعوة إلى العلويين باسم الفاطميين، لأنها أقرب الدعوات إلى بدوة محمد عليه السلام فقد يقال إن العباسيين أبناء العباس عم النبى وإن العلويين أبناء على ابن عمه أبى طالب. أما الانتماء إلى فاطمة الزهراء، فهو انتماء إلى بيت النبى نفسه، وليس إلى الأعمام ولا أبناء الأعمام

هي أوائل الدولة العباسية، كانت دعوة ابن البيت تشمل العلويين والعباسيين، وكان الخلاف يسيراً بين الفريقين على أمر التوفيق بينهما بعد حين، وكانت قوة لدوة في شأنها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده إن وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدوة العباسية بقيت حتى تصبضت وكثر الساخطون عندها والمتبرمون بها وراغبون فى زوالها، وكثر كذلك شهادوها من آل البيت أبناء على وفاطمة، وراى عنها عطف العاطفين عليها لقرباتها من بيت النبوة، فتحول عطفهم إلى الشهداء المظلومين امشردين فى أرجاء البلاد وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يصعبهم مدداً لهم من أمداد العطف والولاء، وأصبحت دوة «الفاطميين» وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون، لأن العباسيين هم لهم لخصوم المحاسبيون على انظلم والى الكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتى الخطر الأكبر على بنى العباس، ومن سببتهم إلى فاطمة الزهراء نأتى امتيازهم بحق الخلافة، ويهد الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين، نأتى شىء أقرب إلى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بىكار هذا النسب، ومن حصر الولاء لأهل البيت فى انقائمين بالأمر من بنى العباس؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين ورغم أنهم ينتسبون إلى ميمون
القذاح ابن ديصان الخوي الفائر بالآلهين، وتدفع التهمة كل ناظم على
الفاطميين وهم صنوف ينتمون إلى كل مذهب وبحلة^(١)، منهم كما أسلفنا
الإخشيدون والأغالبة والأمويون والأتدلسيون ورد عليهم من كان تابعاً
لفاطميين ثم تمص^(٢) المعادير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء
العشائر فى الجزيرة العربية، بل قيل إن أناساً من العلويين شهدوا عليهم
بإدعائهم أن نسبهم فى على وماطمة عليهم السلام، ونسب إلى الشريف أبى
الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن ألا مشقى أنه كتب رسالة فى تفهيد
دعواهم بنكرها المقرينى وينسبها إلى عبد الله بن ررام

ويروى عن سبب نشاط العذر بالله إلى كتابة الإشهاد ببطال نسب الفاطميين
أنه سمع أبياتاً بظلمها الشريف الرضى يقول فيها

ما مقامى على السهوان وعبدى

مقول صارم وأنف حمى

ليس البذل فى بلاد الأعادى

وبمصر الحليفة العلوى

من أبوه أبى ومولاه مولا

ى إذا ضامنى البعيد القصى

ف عرقى يعرفه سيد الن

س جميعاً محمد وعلى

ن ذلى بذلك الجد عر

وأوامسى^(٣) بذلك الريع رى

فأرسل إلى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول إنك قد عرفت مدركك ما
وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أدت على خليفة

(١) حلة بكسر الهمزة والفتحة وما بظلمة أى ما دينك ومذهبك

(٢) تمحل نحل الشيء غلبه بجهة وتكلف

(٣) أوامسى الأوام شدة العطش

ترصاه ويكون ولدك على ما يصاد ما لا تراه عليه من الاعتداد بك لصدق المولاة منك وقد بلغنا أنه قال شعرا - هو هذه الأبيات - هب لنت شعري على أي مقام من أ مقام وهو ناظر في النقاية نقابة الأشراف والحج، وهما من أشرف الأعمال ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأسكر الشعر، فأمره أن يكتب بخطه إلى القادر بالاعتذار وإكثار نسب الحاكم بأمر الله، فأبى، فقال له أبوه «أتكذبني في قولي؟» فقال «كلام أكذبك، ولكني أخاف من السليم ومن الدعاة في البلاد» فقال له أبوه «أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك؟» وعضب أبوه وحلف لا يقيم معه في بلد، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى أنه لم يقل تلك الأبيات، وكتب بخطه في محضر الأفكار، وشاع الرعم بعد كتابة ذلك المحضر أن المهدي لفاطمى لم يكن يسمى عبید الله، وأن اسمه الصحيح «سعيد بن أحمد بن عبد الله لقداح بن ميمون بن ديصان»

وقد اختلفوا في نسبه تارة إلى المحوس وتارة إلى اليهود واختلفوا في احد الذي كان محرسياً أو يهودياً ف قيل إن عبید الله كان ابن حداد يهودى مات عن روحه فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتجنى عبید الله، وقيل إن عبید الله قتل في سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعي) فسماه عبید الله وبابعه بالحلافة، وقيل إن أمة للإمام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبید الله ونشأ في بيت الإمام مستمياً إلى أهل البيت

وقد كانت لهجة البيان العباسي غاية في العنف تنم على العيظ وتحلو مع الدليل، ومنه «إن هذا الساجم بمصر هو منصور بن نزار المتقلب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والدمار ابن معد بن إسماعيل بن محمد ابن سعيد لا أسعده الله - وإن من تقدمه من سلفه الأرحاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم في ولد على بن أبي طالب رضى الله عنه، وإن ما ادعوه من الانتساب إليه زور وبطل، وإن هذا الساجم في مصر هو وسلفه كفار فساق ملحدون معطلون، وللإسلام حادون، أباحوا الفروج وأحلوا الخمر وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية»

ولم يقصر المؤرخون المعكرون عن القوم في العنف ونسبائهم فقال صاحب كتب الروصتين في أخبار الدريتين عن الفاطميين إن المعروف عنهم أنهم «بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل العرب تسمى بعبيد الله وزعم أنه علوى فاطمى، ثم تفرقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى، وكان رنديفاً خبيثاً عدواً للإسلام متطاهراً بانتشيع مستتراً به حريصاً على إزالة العلة الإسلامية، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كاليهائم فيتمكر من إفساد عقائدهم، وبشأب دريته على ذلك منطوين يحهرون به إذا أمكنهم الفرصة وإلا أسروه، والدعاة مبيثور لهم فى البلاد، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الحبال الساكنين بثغور الشام، وأخذت الإبرج أكثر البلاد بالشتم والحريرة إلى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الأبيض وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأرأوا هذه الدولة».

ومن اعتدل من المؤرخين فى الإكثار والسباب، كان خلكان، أيد التهمة بالقصاص التى تؤكد لها أنها ثبتت كإنقصة التى اشتهرت عن سيف المعر وذوهم، وإن ابن طباطبا سأل المعر عند وصوله إلى مصر عن نسبه فس سيفه، فقال «هد، نسبى» ثم بشر عليهم الذهب وقال «وهذا حسبى» وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء أن الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية، لأن الذين وقعوها من الأشراف العارمين بالأسباب قد أكرهوا على توقيعها، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسائل النسب والتاريخ وقد أصعبوا دعواهم عاية اصعف بنسبة حد الفاطميين إلى ديصان الثنوى وهو من أيساء القرن الثالث للميلاد ذهب إلى التوفيق بين المسيحية والزرذشتية قبل البعثة الإسلامية بنحو أربعة قرون، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينا بديان وحينا بزندان

و دندار ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة إليها في قول حد من أولئك المؤرخين، وإنما قيل عنه إنه كان على ثروة كبيرة وعاور إسحاق بن إبراهيم بن مصعب على الثورة في عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة أن خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا المويقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح في قصور الخلفاء من التسري واقتناء الإماء، وقد خولط الحاكم بأمر الله في عقله فجبح إلى التنطس^(١) في الطعام وحرّم المباح منه بدلاً من إباحة الحرام

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة لتبشيع والتبشيع في سبب الفاطميين تارة إلى المجوس وتارة إلى اليهود، فكأنه لا يكفي أن تسقط دعواهم في الخلافة حتى تسقط دعواهم في الإسلام وترجع نسبتهم إلى أعد الملل عن الديانة الإسلامية في عرف ذلك العصر على الخصوص، ثم يقال عنهم ما لا يقال في جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التي روت عن سيف المعز وذهبه عنية عن التكذيب^(٢) لأن ابن طباطبا الذي قيل إنه سأل المعز عن سببه عند وصوله إلى مصر قد ترفى قبل قدوم المعز إليها بربيع عشرة سنة، وابن خلكن صاحب القصة هو الذي ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بن قال لعله أمير آخر مع أن اسم «المعز» هو الذي دار عليه مثل السيف والذهب المشهور، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه، فكل جواب أيسر وأرفع من الجواب الذي وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له إلا الاعتراف بصريح بأنه مدخول النسب دعى في الخلافة

وقد روى ابن خلكن أيضاً أن العزيز بالله صعد المعبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات

(١) التنطس: تمسح الرجل. تأنيق في كلامه ومطعمه ومليسه

إنا سمعنا سيما مذكرا
 يتلى على العنبر في الحامع
 أن كنت فيما تدعى صادقاً
 فادكر أيا بعد الأب الرابع
 ون ترد تحقيق ما قلته
 فانسب لينا نفسك كالطائع
 أو فـدع الأنساب مستورة
 وادخل بنا في النسب الواسع
 فإن انساب بني هاشم
 يقصر عنها طمع الطامع

فإن صحت هذه الرواية فالحدى فيها بإظهار نسب قبل الأب الرابع
 صادر من خير بموضع الخلاف، لأن تاريخ النسب قبل لأب الرابع يوافق
 التاريخ لدى عمد فيه «لائمة العلويون إلى الاخفاء والتكر بأسماء غير
 أسمائهم وانتماز الدعاة دون غيرهم من أسرار دريتهم وأولياء عهودهم،
 وإيم العحيب في الأمر أن يكون العريز بالله هو الذي يتحداه المنحدى بإظهار
 نسب كسب «الطنع» العبدسي، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وريره
 عصد الدولة إلى العريز وحمله الهدايا إليه واعتزاه بسبه وإيه تلقى منه
 الشكر «الإخلاصه في ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته بحوا إمامته
 ومحبه لآبائه الظاهرين»

وقد تواتر أن عصد الدولة هم بالخطبة في بغداد للخلفاء الفاطميين فردّه أحد
 الدهاة من أصحابه عن هذا لعزم، وقد له «إبك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك
 أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ولكنك إذا أقمت
 علويًا في الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم
 بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك.»

وقد أشار صاحب «الروستين في أخبار الدولتين» إلى قيام الدولة الأيوبية
 بعد الدولة الفاطمية، ولكنه يعلم أن صلاح الدين الأيوبي أدن بالقطبة في يوم

الجمعة بخليفة الفاطمي، وإنه إنما حوّل الخطبة إلى خليفة العباسي بعد وفاة العاصد آخر خلفاء الفاطميين وإنه أصاح في ذلك أمر رئيسه نور الدين بن ربكي، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن في هذا التغيير، ومرجعهم الأهم إلى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة، إذ كان الأيوبيون سعيين يشتدون في اتباع مذهب أهل السنة وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والمزاج، وكان أهلهم شيعيين والكرد سنيين، وقد تفاقم المزاج بين رؤسائهم حتى سري إلى الألقاب، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعصد الدولة، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

ومما نلاحظ أن بعض المؤرخين يحلون على البعد في كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية فأبو المعالي الفارسي يقول في كتابه «بيان الأرياء» إن منصور القذاح من مصر وجعله المؤرخين يقولون عنه إنه من فارس، وكل منهم يحبل إلى المكان البعيد حيث يبعثر عليه تحقيق الرواية بالسند اصادق في مكان قريب

ومح من أجل هذا قول ابن خلدون إن شهادة الشاهدين باطعن في نسب القوم كاتب على السماع، وأصاب «مقريري حين قال عن العويين إنهم «على عاية من وهور العد» وخلال «لقد رعد الشيعة مما لحامل لشيعتهم على الإعراس عنهم والدعاء لابن محوسى أو لاس يهودى؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ العاية في الجهل والسخف»

والمعمرى وابن خلدون قد أرخا ليمهدى الفاطمي بعد عهده برمن طويل - وهما سنان غير متشيعين - ولكنهما نضرا في مطاعن أعدائهم نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة بالنسب الصحيح مقام انتعيب والترحيح، وقد عاصر امهدى مؤرخ أندلسى هو عريب بن سعد - وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح في نسب الرحمن ولم يسمع من أمراء أمية في الأندلس قدحاً فيه

وعاية ما انتهى إليه في هذه المسألة - مسألة النسب الفاطمي أن المطاعين
بم تمسسه بدليل واحد يعون عليه، وأن مطردة عبید الله عند اتحافه إلى شعوب
دلیل علی أن العباسیین أنفسهم كانوا يخشون دعوته، وبن مسایعة الشيعة
لأبغائه - سواء شعبة لديلم في بغداد أو شيعة الريديين خاصة في اليمن -
ترجح صدق انتسابهم إلى السيدة فاطمة الزهراء إن لم تؤكد كل التوكيد، وقد
كانت دعوى المكريين عليهم كما قدمت في صدر هذا الفصل أضعف الدعوات
لأنها الدعوى المحتطرة التي تملئها البوغ المتعددة فلا يتدخل أحد أن يتصدى
لفاطميون لطب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضوا لإكباره عليهم ما وسع
المكريين أن ينكروه

* * *



الباطنية

كان المتنفعون بالطعن في نسب الفاطميين كثيرين متعددين، كلهم كما يقدم من دوى السلطان أو أتباع دوى السلطان، وقد استعدوا بالحول والحيلة في ترويج مطاعهم واختراع أقويلهم فاستماتوا إليهم في البلاد الإسلامية من لا مصلحة له في مضاعدهم، ولكننا نحسب - بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه - أن المطاعين في النسب لم تكسب على المصدقين إلا القليل الذين ينظرون إلى الأمر كله بعين اكتراث أو يكثرثون له ولكنهم عبال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون أما الأثر البالغ في تغيير الناس من الفاطميين فإنما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية ودعاء الخصوم أن الباطنيين جميعاً إسماعيليون ممن ينتمون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق حد القانمين بادعوة الفاطمية

فمن رص والناس في المشرق يفهمون أن الإسماعيلية هي كلمة مرادفة للباطنية، ويلصقون بالإسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوي والمكرات، ومن العصائح والقبائح وهي في الواقع كثيرة منفردة لا تحتاج إلى جهد كبير في التنفير والتشهير

وساعد على لصوق اتهمه بالفاطميين أن بعض «صهاجرين» بالإباحة والاجترء على مناسك الدين الإسلامي كالفرمطة في البحرين كانوا يعلنون التشيع للإسماعيليين، أو بعبارة أخرى للفاطميين، فوفر في الأذهان أن دعاة الإسماعيلية جميعاً إباحيون، وأن الباطنية هي إخفاء المكرات وإعلان التشيع للتغريب والتصليل.

وقد قيل إن رجلاً من دعاة الباطنية يدعى «علي بن فضل» ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره في روايات مختلفة

خدي الخدي يا هذه والعبي

وعبي هزاريك ثم اطريبي

نزلني نبي نبي هاشم
 وهذا نبي نبي بسفر
 أحل البنات مع الأمها
 ت، ومن قصته زاد حل الصبي
 وقد حسط عنا فروض الصلوة
 وحط الصيام فلم يتعب
 إذا الناس صلوا فلا تسهضي
 وإن صوموا فكلوا واشربوا
 ولا تطلب السعي عند الصفا
 ولا رورة القبر في يثرب
 ولا تمنعي نفسك المعرس
 من الأقربين أو الأجنبي
 فكيف حلت لهذا العرس
 نب وصرت محرمة للأب
 ليس العرس لمن ربه
 ورؤاه في الرمن المجدي

وقيل على الحملة إن الباطنيين يظهرون الإسلام ليكيدوا له ويدسوا عقائد
 الشرك والصلال بين أهله، وإبهم في الأص محوس منصور على بعض شديد
 للعرب ودسهم لم يقدروا على هذا الدس وتقويض دولة العرب بالقوة، فاحتالوا
 على مأربهم بالديسة والمكيدة، وأسأوا نحلتهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم
 شئ شئاً من عقائدهم إلى التعطين والإباحة والكفر بالبعث والمعد وإنكار
 الفرائض والعقائد والأديان

قالوا من الإسماعيلية خاصة بثئون دعوتهم على درجات ويأخذون
 المرائيق والأيمان على مرديهم ألا يفشوا لهم سرا ولا بظاهروا عليهم أحداً، ثم
 يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المريد من العم على أبدى الأئمة المعصومين

ثم تلغى بعض الرموز التي تروق المرید وتشوقه إلى المزيد من الأسرار، ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها، ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض في المذاهب الفلسفية التي تنتهي في الدرجة التاسعة من درجات الكشف والرفق إلى نأبيه الإمام على مذهب الطول، وأنه هو روح الله حلت في حسد، سان، ولعمري ماذا في وسع عشرة أو عشرين من «الواصلين» إلى هذه الدرجة في أرس العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرًا بإباحة الشهوات ورفض الأديان^{١٩}

واقفة الباحثين في هذه الأغز والإشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا معتنون أنفسهم في جمع هذه الأخبار فإذا هي تتناقض ولا تستقر على قرر

هؤلاء المؤرخون الورقون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التي تبدأ البحث الصحيح فيها وينتهي في السريرة الإنسانية وما يحور فيها وما لا يحور، وما يجب أن يرفض بداهة، فلا يطور البحث فيه بعد ذلك إلا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأبائله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات.

فمن الطريف حقًا أن يقيّد المریدون بالإيمان والأقسام ليكتفوا السر ثم يأتي السر المكتوم فإذا هو سر يحلهم من جميع تلك الأيمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم إلى يقين جديد!

وطرف منه أن يقال عن رجس إنه معطل مكر لمعاد مكر للأديان، مكر لوعود الإلهية ثم يقال عنه إن كراهة دين من الأديان تبعته إلى الجهاد سرًا وعلانية والاستماتة في الجهاد حتى يتعرض للعقل والتشريد أملًا في يوم من الأيام يرول فيه هذا الدين ويشهد هو رواه أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

إنما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة من يبقى في نفسه من الحماسة الروحية ما يهز عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة، لأن دين قومه وغيره من الأديان عنده سواء.

كان تصديق هذا مفهوماً في القرون الوسطى، لأنهم كانوا يؤمنون يعتقدون أن
الكافر بكفره في سبيل الشيطان وأنه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسوائه بأذنه
ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلاً من نعيم
السماء، وكانوا يؤمنون يقوون عن أساس بأعدائهم يسهم على صلة بالشيطان
وإنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والوجود
واستلهموا مكره معقدوا معه صفة المعيون في حساب المؤمنين

أما في عصرنا هذا فمن العسير أن يتحيز الإنسان ملحدًا ينكر كل شيء
ويتحرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كأنها ما كان، إلا أن
يكون ذلك شيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في بئته، ولا يعقر حينئذ
أنه سدرج بالاتباع وامريدين من احسن بحقيقة إلى العلم بتلك الحقيقة
والاطلاع على دسائسه وغاياته التي يلبسها على الناس بتلخيص من العذر
العقائد وأسرار الديانات

وقد شعلت طائفة مؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة الفرامضة وأشياهم
في اليمن وفارس وادعائهم النسبة إلى الإسماعيلية في المغرب مع مجاهرتهم
بامعاصي واحترتهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء،
فحظر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين الفرامضة والإسماعيليين
حد تحتل البحث، ويؤدى البحث فيها إلى ثبوت العلاقة بين هؤلاء هؤلاء

وأعرب العرائف أن أحداً من أولئك المؤرخين لم يحظر له أن يسأل لماذا لم
يظهر في المغرب - حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها - أساس من دعاء لإباحة
والعصيان، كالذين ظهروا في البحرين واليمن وفارس وبعض بفاع الشام؟

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر في التاريخ أن الانتماء إلى
الإسماعيليين مفهوم من أساس يقيمون في بلاد الدولة العباسية ويعلمون الخروج
عليها هم في حجة إلى سلطان مشروع يقومون به سلطانها المخلوع،
وانتماءهم إلى الفاطميين أو الإسماعيليين هو اسند الذي يركنون إليه في
محاربة الدولة العباسية وإنكار حقها في الطاعة والولاء ولو كان بشر الدعوة
الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصي لكان ولي البلاد أن تظهر فيه طوائف
الإباحة هي بلاد المغرب حيث دار انعم لحافة الفاطميين

ولقد حدث فعلا أن الفرامطة خلعوا البيعة الفاصمية ورجعوا إلى الدعاء على
المباير باسم الخليفة العباسي حين وقعت النبوة^(١) بينهم وبين الخليفة الفاطمي
في القاهرة، وسؤل بهم الطمع أنهم قادرون على فتح مصر بعد أن حاربوا قوتهم
وحيلتهم في فتح أطراف من بلاد الشام.

وقد يكون أعرب من هذا أن يقال من جهة إن الإباحة هي الدرجة السابعة أو
الثامنة التي يصل إليها المرید المترقى في كشف الحجب وعلم الأسرار، ثم يقال
من جهة أخرى إن هذه الإباحة سر مباح في الطريق يعكف عليه المؤمن حرة
ويردده الشعراء ويتغننى به القيان

ثم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ في بحث من البحوث كما انفصلا في
بحث قصية الإسماعيلية والباطنية، ولهذا كثر فيه التخييل وقل فيه الثبوت
والوضوح، وبحسب أن محنة التاريخ هب أصعب من كل محنة، لأن المؤرخ هـا
يعمل عمليين ولا يستقل بعـم واحد. يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها
من الأنابطين التي تحجبها عن عمد وتدبير، وواحد من هذين العاملين كثير على
مؤرخي الورق والحروف

إننا عرفت ألوانا من النظم السرية التي اصصحت عليها الجماعات المتستره
هي العصور القديمة، وبعضها ديس يتخذ له أعراضا سياسية كاجتماعات
الأورفية والجماعات العيساغورية، ولا سرى الآن كيف تكشفت هذه لنظم
المرومة، بل لا سرى هـ هي في الحق كانت موحودة متبعة أو هي أوهم
وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستبصار.

ولكننا إذا سمعنا عن نظم سرية هي عصور التاريخ القريب فلا معنى في
هذه الحالة للإحالة على القدم أو للتخييل في الطيور، إذ يحق لنا هي هذه الحالة
أن نسأل عن المرید الذي تدرج في مراتب الباطنية حتى وصل إلى قيادة الدعوة
ثم خابها وأفسى أسرارها، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذي تعقب الجماعة
بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق
المطوية التي نشرت بعد العثور عليها في إبانها أو بعد انقضاء زمانها ونسا
بذكر كيف اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدًا تحدث عن مرید و حد صعد

(١) النبوة: التمام والتينص

على مراتبها من درجة التلمذ المبتدئ إلى درجة الحجة لمطع على جميع
 خباياها، ولا أن أوراها لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأديعت في أوانها أو
 بعد أوانها، بل رعم الرواة أن الذي فصيح الجماعة وأكر على جعفر الصادق
 نفسه دعواه، قبل دعوى إسماعيل ابنه وخلفائه، هو عبد الله بن ميمون القداح
 ومن هو عبد الله بن ميمون القداح؟ هو واصع انصام كله ومربى لدرجات كلها
 ومصصع التخفي والتكر لبوغ مقصده من ادعوه باسم إسماعيل بن جعفر
 الصادق حد الإماميين أجمعين

وعبد الله هذا هو الذي قال فيما زعم الرواة

هات اسقني الحمرة يا سببر

فليس عندي أنقى أنشر

أما ترى الشيعة في فتنة

يفررها عن دينها جعفر

قد كنت مفروراً به برهة

ثم بدا لي خير يسائر

وتم تكفه قطعة واحدة سطمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها

مشيت إلى جعفر حقة

فبقيته خادعاً يحلب

يحر العلاء إلى نفسه

وكل إلى حبله يجذب

فليسو كان أمركم صادقاً

لما ظل مفتولكم بسحب

ولا غص منكم «عنيق» ولا

سما «عمر» فوقكم بخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أبناء الفتى من آل هاشمة وعلى، سرامهولا يوجب
 الشك إن لم تجزم بانبيئين من بطلان الخبر وتضيقه وخير من هذه الأسرار وغيرها

أنه عدل عن الدعوة لإسماعيلية فيما نوترت به أخباره في المشرق والمغرب، مما ربت دعوة الفداح إلى ختام حياته قائمة على امبايعة بالخلافة لإسماعيل وأبداء إسماعيل

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو الواقع صدمة توجب الشك إن لم تحزم باليقين من بطلان الخبر وتلقيقه وخير من هذه «الورقيات والنصيات» أن نطمن إلى مقياس واحد لا شهة عليه من اهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نحصل منها إلى قول صحيح أو نقد صحيح

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التي كانت شائعة في العالم الإسلامي من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة، ونخص منها بالطر ما يرجع إلى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكتّم وإمداراه من جهة أخرى.

مدولة العباسية دخلت في دور الضعف واستفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فاختلت قواعد الحكم وصاعت الثقة في الحكومه القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمتفصون عليها، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه فمن خرج عى بنى العباس أكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وحود عترة النبى من أبداء على وفاطمة، ومن اعتراف لى العباس بالحق الشرعى في الخلافة زعم أن احكم في دولتهم بعيرهم من وزراء الترك أو الديم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبدلها للصنائع والأعوان، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لإبكار الخلافة على لعانمين بها والاستسلام للأدعياء الوائبين علسها، وتتابع المستحلون للمعاذير الديفيسية في طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين

وفي تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثلاً لا دعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب في بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن وبشاً بين العلويين في الكوفة فإنه ادعى النبوة أو المهديّة في سادبة السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه وإلى حمص من قبل الإخشيد فاعتقله ولم يطلقه إلا وقد عدل عن دعواه،

ومن أحاديث المعمرات التي طوأت بها كما جاء في «رسالة العفران» أنهم قالوا له في بنى عدي: «هاهنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أفردنا لك مرسل فعصى إني تلك الناقة وهي رثعة في الإبر وتحيل حتى وثب على ظهرها، فممرت ساعة وتكررت برهة ثم سكن نفاها ومشت مشي المسمحة^(١) وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعحبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم»

قال أبو العلاء بعد ذلك «رحدثت أيضاً أنه كان في دوان اللادقية وأن بعض الكتّاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً، وأن أبا الطيب تفن عندها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمحروح لا تحلها في يومك، وعد له أياماً وإياي هبرئ اسرح فصاروا يعتفدون في أنس لطيب أعظم اعتقاد، ويقولون إنه كمحبي الأموات وحدث رجل كان أبو الطيب قد استحقى عنده في اللادقية أو هي غيرها من السواحل، إنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرمح، ولقبهما كلب ألح عيهما في اسباح، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد إليك ستجد ذلك الكلب قد مات، فلما عد انرحل ألقي الأمر كما ذكر»

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية في عفران شباب أبي الطيب، فلم أوفى على الشجوخة كان قد عدس ربما عن دعواه ولم يعد عن طلب لولاية من كافور الذي كان خصياً مملوكاً فاستند بالعرش وأصبح فيم رعم «دور الله يعيد في مصر».

قال داعي الدعاة يصف حال الناس في تلك الأرمية من كتب أرسله إلى أبي العلاء المعري: «إني شققت بطن الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشهدت الناس دين رجيين إما منتحلاً لشريعة صياً إليها وسهج بها إني لحد الذي ين قيل له من أخبار شرعه إن فيلاً طار أو حملاً بض لما قابله لا بالقبول والتصديق، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه، فالعقن عند من هذه سبيله في مهواة ومضيعة أو منتحلاً للعقل يقول: به حجة الله تعالى على عباده، مبطلاً لجميع ما الناس فيه، مستحقاً بأوصاف اشترائع، معترفاً مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكبتها، لكونها مفعمة للحاهلين، ولحاما على

(١) المسمحة أسمعت الدابة لايت والقدارت بعد استصعاب

رءوس المحرمين المجارفين، لا عسى أنها بخيرة بلعقبي أو مباحة في الدار
الآخري فلما رمت بي المرامى إلى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ، وفقه الله،
بفصل في لأرب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل،
ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين، وفي أمره متباينين فكل يذهب فيه
مذهباً ويتبعه من تقاسيم الطيرون سبباً، وحضرت مجلساً خليلاً آخرى فيه ذكره
فقال الحاضرون فيه عثاً رسمياً، فحفظته بالعين، وقلت إن المعلوم من صلابته
في زهد يحميه من الطنة والريب، وقام في نفسه أن عبده من حقائق دين الله
سراً قد أسبل عليه من التفة ستر، وأمره تمر به عن قوم يكفر بعضهم بعضاً،
ويلعن بعضهم بعضاً، ولما سمعت للبيت

غدوت مريض الدين والعقل فاقني

لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدي مما حدثت عقوده، وتأكدت عهوده، وقلت إن لساناً يستطيع
بمثل هذه الدعوى بطقاً، ويفتح من هذا العظيم رتق، للسان صامت عبده كل
باطق، وناطق من دروة حب من العلم شاهق، فقصدته قصد موسى عليه السلام
للطور اقتبس منه ناراً، وأحاول أن أرفع بالفخر مبراً، بمعرفة ما تخلف عن
معرفة المنخلون وختلف في حقيقته المختلفون «

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو «أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي
عمران» صاحب أكبر مصيب من مصائب لدعوة في الدولة الفاطمية، كتب
رسائله إلى حكيم المعرة يناقشه في تحريمه اللحوم على نفسه وبسائله عن البعث
والعامة، مستعظماً على امتقولين أن يتهموا بإنكارهما حكيم كأي العلأ، وقد
استعار من اسمه «موسى بن أبي عمران» تفسيراً لوقوفه من رهين الحبس
موقف المقتبس من نار الصور

وعلى ذكر أبي العلأ واعتقاد الناس في أسرار الحكمة وقوتها الخفية بقل ما
رواه ابن البردي حيث ذكر في تاريخه «إن حساده أعرو به وزير حلب فجهر
لإحصره خمسين فارساً ليقتله، فأبزلهم أبو العلأ في مجلس له بالمعرة واجتمع
هو عمه وتآلموا لذلك فقال إن لي ربا يمنعني، ثم قال كلاماً منه ما لا يفهم،
وقال الضيوف الضيوف الوزير فوقع المجلس على الخمسين فارساً

فماتوا ووقع الحمام على الورير تحلب فمات، فمات الناس من رعم أنه قتلهم بدعائه وتهلده، ومنهم من رعم أنه قتلهم بسحره ورصده».

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل مذكر عن العراقي أنه قال «حدثني يوسف بن علي بأرض الهركار قال دخلت معرة النعمان وقد وشى ورير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعري رديق لا يرى إفساد أنصور ويرعم أن الرسالة تحصى بصفاء العقل فأمر محمود بحمله إليه من المعرة وبعت خمسين فارساً ليحملوه، فأبرزهم أبو العلاء دار الصباغة، فدخل عليه عمه مسلم ابن سبيمن وقال له يا من أخی قد برئت بما هذه الحارثة والملك محمود يطلبك، فإن معنك عجزاً وإن أسلمناك كان عاراً عليك عند ذوي الدمام وبركت تنوخ الدل والعار، فعار هو عليك يا عم ولا بأس عليك، فلى سلطان يدب عني ثم قام فاعتسل وصلى إلى نصف الليل، ثم قال لعلامه «نظر إلى المريح بن هو» فقال في منزلة كد وكدا، فقال ربه واصبر تحته وتدا، وشد في رحلي خيطاً واربطه إلى ابنتي، ففعل علامه ذلك، فسمعناه وهو يقول يا قديم الأرض يا غلة العنبر يا صانع المخوقات! وموحد الموحودات أنا في عرك الذي لا يرام وكعكك الذي لا يصام، الصيوف انصيوف الورير ثم ذكر كلمات لا تفهم، وإذا بهذة عظيمة فسأ عنها ففيل. وفعت الدار على انصيوف الذين كانوا بها ففعلت انخمسين، وعند طلوع لشمس وفعت يطافة من حب عني حياح صائر ألا ترعحو الشيخ فقد وقع الحمام على الورير قال يوسف بن علي فلما شاهدت ذلك دخلت عني المعري فقال من بين أنت؟ ففقت من أرض الهركار فقال رعموا أنسى رديق، ثم قال كتب وأمى عني أبيات من قصيدة أولها

أستغفر الله في أمنى وأوجالى

من غفلتى ونوابى سوء أعمالى^(١)

هذه الحالة النفسية اتى بها أرحاء العالم للإسلامي في القرن الرابع خاصة خلفه أن يحكم فيها عشرات ممن يستهترون الناس بالأسرار الباطنية لأن عالم الباطن مستودع كل أممية وبعية كل صائب طائب الدين وطائب الدنيا، صائب المعرفة وطائب السحر والعيافة^(٢)، أو طائب العلم الأبيض وطائب العلم الأسود،

(١) كتاب أبي العلاء المعري للمرحوم أحمد تيمور باشا

(٢) العيافة زجر الطير لمعرفة مساقطها، وأصوبها قيقطها أو يتشام بها

وخلق أن يقف البصر صريلاً عند قوى داعي الدعاة أنه يصل سراً من أبي العلاء،
وبه قام هي نفسه أن عند أبي العلاء «من حقائق دين الله سراً قد أسبى عليه من
التقية ستر» فإنه قد يكون في هذا القوم مديحاً أو مديحاً ولكنه أبى عن سعة
العصر كله من «الباطنية» التي يعرضها على نفسه العارف بأسرار الدين

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعي الدعاة هي
الدولة الفاطمية، وهو الرجل الذي ينتهي إليه كل سر، ويصل إليه التلميد بعد
درجات ليسمع منه - فيما رعم الزاعمون - أن الدين نعو وأن القيامة وهم وأن
المحرمات مستباحة للعرفين، فلو كانت هذه رسالته التي بنهى إسبها كل متقدم
هي درجات الأسرار فما حاجته إلى محاسبة أبي العلاء على الظنون التي تداع
عنه هي أمر احلال واحرام وأمر البعث والحساب؟ لقد كن الرضى عن مذهب
الزندقة جميعاً أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها، فبهم يتبرعون
بما يحتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحين للوصول إليه، بعد طول العناء

إلا أن الخلاصة الثابتة في ذلك العصر أن «الباطنية» الواقعية حالة من
الحالات التي لا تستعرب من دعائه امخلصين وأدعيائه المعرضين، فهناك
«باطنية» يعرضها الناس على أنفسهم قبل أن يعرضها عليهم نظام مقرر و
مذهب منظم، ودعاء الأسرار في تلك البيئة أمر مستظر مترقب لا عرابية فيه، وقرب
ما يكون هذا الادعاء إلى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب امكانة بما يعمل
ويتعلمه منه غيره، وفاقاً لشرطه وتدبيره

وقد صار المجتمع الإسلامى إلى تلك الحالة في القرن الرابع وما تلاه بعد
تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة
لمستحدثة

وأما التمهيدات التي هي من فعل السياسة فهي ما أسلفناه من ترعرع الثقة
بحق لسلطان القنم على اختلاف الحاكمين والحكومات، وأما التمهيدات التي
هي من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهي انتشار الفسفة وشاة البحوث
العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد، ومنها اقتباس الحصارا
العربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتحديث والاسترسال مع العرف
الطارئ في غير بحث ولا مبالاة

وقد كان أنصار السلطان «العائم محافظين» لأنهم يبعصون التعبير ويحفظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب إلى التجديد والتغيير، وكانوا مظنة للنهم من أنصار القديم، فكان من الطبيعي الذي لا غرابة فيه أن يصطبغوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتزمون السجدة عند «الواصلين» المتمكنين من بواطن الأسرار، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجعت الطوبى ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقوامًا يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند الحجوم

ولم يكن الفرق بين علم الحجوم الصحيح وعلم الحجوم ابرائىف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاف بين «المطبلين»، بين الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين «الأفلاك» ويقولون بغلبة الأرواح لئورانية انتهى لا تقبل الفساد على كواكب اسماء، وأن الصلة بينها وبين الإنسان تتوقف على ارباطة والصعاء، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتحلى ولا يسمعون أن يكشف «الغطاء» عن البصر والبصيرة فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والإشارات

وإذا كانت «الباطنية الواقعية» قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدي، وقد أوقعت فى النفوس أن ساسكا صريزا سيطر على الورراء ووجود نفوة العيب أو نفوة لحوم، فمن الخلد أن يقارن الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاصمية، وإن هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح فى الخفاء، وكل ما يندرج به الطامعون فى الحكم من درائع الدنيا والدين

* * *



الباطنية الفاطمية

وكتب للفاطميين على هذا باطنية فاصصة أو إسماعيلية، إلى جانب هذه الباطنية الواقعية

لم يبق الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الإسماعيلية إلى دعية من المحوس أو اليهود ببرها تدبيراً ولحقها تلفيقاً لهدم الإسلام خاصة وهدم الديانات عامة، وتلقين «الواصلين» دروس الكفر والتعطيل وإنكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات، كراهة للعرب وبولتهم، وانتقاماً منهم بالديسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان.

والتهمة ضعيفة، لأنها جاءت من مغرضين عرصهم معروف، وهي ضعيفة بعد هذا، لأنها مضطربة مناقضة لا تثبت على رعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة فأصل الدعوة مارة من المجوس ومارة من اليهود، ومرة يرجع أصلها إلى دبصان الذي طهر قبل الإسلام، ومرة أخرى يرجع إلى ابن القداح الذي يبين من شعره به مسلم وأنه شك في الإمام جعفر بعد أن لا به وتتلذذ عليه، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفي التهمة من الضعف قوى هذا وذاك أنها لا تحرى حرى المؤلف من طيناع النفوس، فإن الرحن الذي يكفر بالدين عامة لا تمكك الحماسة بهدم دين ولا سلغ منه هذه الحماسة أن يصير للجهاد الطويل ويستبين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب إجماع الناس من حو به على اختلاف الحنك والأداس.

ومن المشكوك فيه بعد هذا، جميعه أن يهدم الدين إذا كفر به في كل عصر طائفة من «الواصلين» معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات في الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب واسطراء، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعي أو سعاية من ساع، ولم يرل الشك يتسرب إلى حاد من الحائرين والمترددسين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم ويرى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم يهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع لفاطميين أساس خطبوا في لعفاند خبط عشواء وجرهوا بمذهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الإسلام الصحيح ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الإمام عليه السلام إلى عهدنا الذي نحن فيه، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الإمام على ولا على أحد من بيته الأئمة الذين سمعوا به فأبكروه أو سكتوا عنه ولم يرتصوه

ففي حياة الإمام على كان عبدالله بن سبأ وأصحابه يؤلهون على ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويفوضون يرجعة السبي وينشرون مذهب انحلول وتناسخ الأرواح وبعد مقتل الإمام بسط أصحاب البهجة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول في حياة «محمد بن الحنفية» وقيل عن المختار الثقفي داعية للقوم أنه ادعى النبوة ومظم له قرأنا يعارض به القرآن الكريم ويفرسه على صحبه في الصلوات ومكان الإمام وأبيه محمد في الإسلام أرفع من أن يتطاول إليه من أهل هذا عدر ينج في عدرانه فضلاً عن الولي والصدق. وقد بقي امرجنون والقائلون بالرجعة والحلول يتمدون في صلاتهم بعد أن برئ منهم الإمام على وعاقبهم بالحريق، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام في الحجاز ومركهم بالعراق يلحون في الادعاء له والادعاء عليه

ولم نخل عصر الإمام جعفر الصادق - أبي إسماعيل رأس الإسماعيليين - من دعية يفترى على الأئمة العوييين، وهم أحياء، كما فعل أبو الخطاب الأسدي الذي كان يقول بتشخيص الحنة والنار، وزعم في مبدأ أمره أن أولاد الحسن والحسين أنبياء الله، ثم زعم أنهم أرباب وأن الإمام جعفر له يُعبد معه جعفر الصادق وبرئ منه وبفاه قال أبو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق «فادعى بعد ذلك في نفسه أنه لإله قال أتباعه إن جعفر الإله غير أن أبا الخطاب أفصل منه وأفضل من على وجوز شهادة الزور على مخالفيهم»

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على «مخالفين» ومن شهادة الزور ما نحوه لأصحاب المذاهب من أشيعيين والسنيين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للإمام على وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية، فأبكرهم الخليفة الفاطمي حين خرجوا على

لديس وأعاروا على الحجار واعتدوا على الحجاج وكتب الخليفة بقائم وهر
يامعرب إلى داعية لقراطة يفور له «اعجب من كتبك إليا ممتناً عليا بما
ارتكبت واجترمته بسما من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تر الحاهليه
تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت لك ولفج الحجر الذي هو يمين
الله في الأرض يصافح بها عباده، وحملتة إلى أرضك ورجوت أن بشرك، فعنك
الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده».

وعلى خلاف ما قبل عن إباحة المحرمات في لذهب الفاطمي ثبت من
بصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون في الحلال المباح ويأمرون أتباعهم
ومريدهم بالقصد فيه وقد أوصى المعز أتباعه من رعاء كتامة بالمعرب فقال
عن الروحاني «الزمو الواحدة التي تكون لكم ولا شئروا إلى التكثر منهن واربعة
فيهن فيتمنع عيشكم وتعود المصرة عليكم وتبهكوا أديانكم وتذهب موتكم
وتضعف حوائزكم»^(١)، محسب الرجل الواحد الواحدة.

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا وهو أعلمهم بالسيحيم
يقول كما روى عنه القاضي النعمان في كتاب «المجالس والمساير» «من
نظر في الحامة ليعلم عدل السنين والحساب وموقيت الليل والنهار وليعتبر
بدك عظيم قدرة الله حل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك
له فقد أحس وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم عيب الله والقضاء بما يكون فقد
أساء وأخطأ»

وكان التعرير كالمعز في هذا المعتقد كما قال أخوه تميم في إحدى قصائده

ولما اختبها في العجوم وعلمها

وهي أسها بالنفخ والضر قد تحرى

فمن مؤمن منا بها ومكذب

ومن مكذب فيها الجدال وما يدري

ومن قائل تجرى بسعد وأنحس

وتعلم ما يأتي من الخير والشر

(١) بحائزكم البحيرة الشنة.

فَعَلِمْتُنَا تَأْوِيلَ ذَلِكَ كُلِّهِ
 بِمَا فِيهِ مِنْ سِرٍّ وَمَا فِيهِ مِنْ جَهْرٍ
 عَنِ الظَّاهِرِ الْمُبْصِرِ جَذَلَ تَأْقِلًا
 وَكَانَ بِهَا دُونَ الْبَرِيَّةِ ذَا خَبَرٍ
 فَأَخْبَرْتُنَا أَنَّ الْمُنْجِمَ كَاهِنَ
 بِمَا قَالَ، وَالْكَهَانَ مِنْ شِيعَةِ الْكُفْرِ
 وَأَنَّ جَمِيعَ الْكَافِرِينَ مَصِيرُهُمْ
 إِلَى النَّارِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ
 فَجَمَعْتُنَا بَعْدَ اخْتِلَافٍ وَمَرِئَةٍ^(١)
 وَأَلْفَقْتُنَا بَعْدَ التَّنَافُرِ وَاسْتِزْجَرٍ
 وَأَوَضَحْتَ فِيهَا قَوْلَ حَقٍّ مَبْرُورٍ
 يَخْلِي ظِلَامَ الشَّكِّ عَنْ كُلِّ ذِي فِكْرٍ
 فَعَدَّنَا إِلَى أَنْ الْكُوكَبُ زَيْمَةٌ
 وَهِيَهَا رَجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ إِنْ تَسَرَّيْ
 مَسْخَرَةٌ مُضْطَرَّةٌ فِي بَرُوجِهَا
 تَسِيرُ بِتَدْبِيرِ الْإِلَهِ عَلَى قَدَرٍ
 وَأَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ لِلَّهِ وَاحِدٌ
 تَبَارَكَ مَنْ رَبٍّ وَمَنْ صَمَدٍ وَنَرٍّ
 وَمَا عَلِمْتَ مِنْهُ الْأُتَمَّةَ إِنَّمَا
 رَوَاهُ عَنِ الْمُخْتَارِ جُذْهُمُ الظَّهَرُ

وقد خولط حبيفة من خلفاء العاطميين في عقله - وهو الحاكم بأمر الله - فلم
 يثبت من تصرفه أنه تلفن من آياه وأسلافه مذهب لإباحة وادعاء الربوبية، وأنه
 وريد قوم من اليهود أو المحوس متدسين على الإسلام ليفسدوه ويقصوه، من

(١) مريّة الشك والحدس

ظهر أنه يحرم المباح وبطارد اليهود تارة ويعصى عنهم تارة أخرى على كراهية
وبعور، وأنه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يده ودركابه،
وأمر ألا يرب الداس في السلام حين يدخلون إليه على قولهم «السلام على أمير
المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

ويجوز أن يقال عن هذا الحيفة إنه كان في تحليطه وتحديفه^(١) مريسة
المصلين من ورائه ولا يجوز أن يقال إنه تولى العرش وهو يعلم أنه يهودى أو
محوسى يستدرج المسلمين إلى الكفر والإباحة وبه يهدم دولته ودونة الإسلام
كله وفاقا لما تأمر عليه آباؤه وأضراره.

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم ورواحره وكل ما شاع عن
تفائسه وبدوانه، فإن انتشيع بالمصحكات والمبالغ مأنوف في القاهرة لذلك
العهد وما تلاه.

وقد وضع كتاب عن «قرة قوش» صورته للناس في صورة الطاغية الذى لا
يبالى ما يأمر به من المستحيلات والعرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة
من تعليقات الرواة، فحسبوا كلها حدا لا مرية فيه، وتماقلوه وأضافوا إليها،
ولم يرالوا يرددونها على هذا الفهم الخاص إلى زمن قريب، وقد كان «قرة
قوش» على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا في الحرم وأصالة الرأي
وحسن التدبير.

وعند ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما أدعوه على الحاكم من الدعاوى
الدنية، وأنه كان مضطربا في الحر والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة،
وأما ما يروى عنه من الكفر فعير صحيح ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من
الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته، وأما مذهبه في الرافضة فمعروف، ولقد كان
مضطربا فيه، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين في صلاة
الترابيع ثم ينهى عنها.

على أن لأقارب من حاكم صحت أو لم نصح - إنما تروى عنه ويعلم
روتها أنهم يتكلمون عن رحن مخالط في عقله لا يعول له على مر أو عناية

(١) مجدده. جند. كفر بالنعم، واستقر عطاء الله

ونحب هذا أن نوضح ما يستبعد سببه إلى الدعوة الفاطمية هي صميمها على حسب ما انتهينا إليه من الشواهد النفسية والتاريخية

فبحر لا يستبعد أن يكون من الدعاة الفاضلين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم في التصوف أو الفلسفة أو التحكيم مذهباً ينكره علماء الدين من السنيين والشيعة

ولا يستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القصيدة الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ونصقوا بها كما يلصق طلاب المصانع والهارون بفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المصانع الخاصة مع خدمة المصانع العامة

ولا يستبعد أن يغاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدين في دور التأسيس أو في دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيداً ولا موجباً لاستبعاده نظراً إلى أحكام العقل أو شواهد التاريخ

ولكن الذي يستبعده ويرى أنه مناقض لواقع وللمألوف من الدواعي النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبين بين الناس من المعطلين على إنشاء دولة لهدم الدين الإسلامي والدولة الإسلامية معه، وأن يشمل هذا التواطؤ أهواماً في المغرب والمشرق ويدوم من قرن إلى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمان طويل

هذا هو البعيد عقلاً والبعيد في دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب إلى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية، أو شؤون الدعوة العلوية في جملتها فقد سار في التاريخ مطرداً على النهج الذي ينبغي أن يسير عليه

إن الإيمان بالإمامة وإطلاع الإمام على الأسرار التي تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية في نشأتها التاريخية

فإن المؤمن بحق على وأبانه في الإمامة يسأل نفسه لم لا يبصره الله على أدعياء الإمامة والخلافة؟

إنه يؤمن بالله وقدرته وقدره، فلا حواء لذلك السؤال عنده إلا أنها حكمة يعلمها الله، وإن الإمامة العلوية منتورة بزمان غير هذا الزمان، وإن الإمام الحق يعلم زمانه أو ينبغي أن يعلمه بإلهام من الله

وقد أمر شيعة على بهذا ومحووا معه بعرفانه لعلوم الحفر وتأويل انكتاب، وكلما تباعدت المسافة بين إمامة الواقع وإمامة الحق تباعد معها المسافة بين إمامة الظاهر وإمامة الباطن ثم جاء الزمن الذي أصبح فيه إمامة الباطن مستورة حتماً فصبح فيه علم اندين والدنيا مرهون بما يتعلمه لطالب من الإمام المستور ومن دعااته الذين يخلصون إليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله وإسارانه، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مخلص من هذا التعليم

وإذا كان السلطان صاحب الحد والنصولة يعتمد في قيام دولته على الشريعة والفصاء وعلى السيف والشرطة فعلا م يعتمد الإمام المستور الذي لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء؟

إنه لن يعتمد على شيء غير الصعة والثقة التي لا تترعرع، فلا حرم بطيعة المصطنع وهو يؤمن بعصمته على الأقل في شؤون إمامته، ويؤمن بهلاك روحه إن خرج على حكم الطاعة وخسر أمانة لديب والآخرة، ونقص العهود وحدث باليمين.

كل هذا بديه ولا حاجة به إلى وصف أوراق أو رسم أسانيد؛ لأنه لن يكون إلا هكذا حيثما كان، وقد كان

ولا ينسى أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسِر الذي يروّصون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التي سميها بتوفيقات «اسوقف» أن الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الإمامية على الجملة تتلاقى هنا - بحكم الموقف الواحد - في كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكنومة تتلاقى في جانب واحد وإن كانت متعددة المطالب والموضوعات.

وقد كان المحافظون على الواقع الزاهن ينكرون هذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت في لعنف والصرامة

فكان «الموقف الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التي لا يرتجح إليها أنصار الواقع ولمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصدفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بفكرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم فكان الكندي وأغارابي وابن سينا من الشيعة، وكان إخوان اصفاء كذلك من الشيعة ومن كان من الفلاسفة سنيا كالغفر الرازي فمذهبه الفلسفي في صفات الله يوافق مذهب الإسماعيليين وأئمة الفاطميين، إذ كان يرى أن الإيمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد

والذي نستخلصه من المذهب الفاطمي أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الإلهي الذي تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمي في حقيقته إلى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباها كان يذهب في الكلام عن الحق والفس مذهب الإسماعيلية

ونستخلصه من رسائل إخوان الصفا وهم من الفئتين بمذهب لفيض الذي كان يقول به أفلوطين

بل نستخلصه من خلط الخاطين في هذا المذهب، لأنه هو المذهب الذي يتعرض لهذا الخط في كل مكان، وقد تعرض له في الشرق كما تعرض له بين الأوربيين في القرون الوسطى ولا يزال يتعرض به في العصر الحديث.

وعلى نفيس ما قيل عن الإباحة في مذهب الإسماعيليين بمناز مذهب الفيض الإلهي بالمبالغة في التطهر والإعراض عن الشهوات والترفع عن عوابة الدنيا حتى يتها لك عليها الجهلاء، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشيء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الإلهية والبحث عنها في كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود.

وقد نبه إخوان الصفاء في غير موضع من رسائلهم إلى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة في حياته «خاصة وعمامة، وقالوا غير مرة أن الاستسلام لشهوات البدن يقطع الإنسان عن آخرته ومعبده، ومن ذلك قولهم في رسالة بحسمايات والطبيعات «اعلم أن الاستغراق في الشهوات في هذه الدنيا يبسى الإنسان أمر الآخرة ويشككه ويئسه منها، كما قال قائلهم في هذا المعنى

هي الدنيا وقد عبدوا بأحرى

وتسويف الظنون من السوام

وقبل أبعث في هذا المعنى شعراً

خدوا بنصيب من نعيم ودة

وكل وإن طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهياً عن أمر الآخرة

ما حاءت أحد يضبر إنه

في جنة مذ مات أو في نار

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الطلوع والشكوك والحيرة التي وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم وبصيحة نبيانهم، اتبع علمائهم وأحكامهم فيما يدعونه إليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرهم به من الزهد في الدنبا ويذهبهم عنه من العرور بشهواتهم وعاجل حلاوتها»

ومما تقدم عرف عن هذا المذهب الفلسفي أنه مذهب بسك وعفة وعروف عن الماديات وترفع إلى عالم الروح وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره في العفة والزهد والانقطاع عن شوق الثروة والجاه، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره وفنائسه ليلازمه في معبده ويعيش على مثاله

ولا عني عن خلاصة لهذا المذهب بنقلها هنا كما أوردناها في رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهي كما يلي

«إنه يتجاوز أرسطو أشواطاً بعيدة في التبريه والتحرير، فيرى أن الله أو الأحد من وراء الوجود ومن وراء الصفات، لا يعرف ولا يوصف، ولا يوجد

في مكان ولا يخلو منه مكان، وكماله هو الكمال الذي يفهمه بعض انفسهم بنهي
النقص عنه، وهيئات أن يفهمه بزيادات صفة من الصفات، لأننا نستطيع أن نقول
إنه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول إنه هكذا يكون

«وقد يتصل به الإنسان في حالة الكشف والتخلي حين تتجاوز الروح
حسدها كما يقول، وبكها حالة لا تقبل التأمل والتفكير، فإذا انقصت فقد يثوب
الإنسان بعدد إلى عقله فيتأمر ويفكر ويسجد بذلك من مقام الأحد إلى مقام
العقل الذي هو دونه، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول ويقول أفلوطين كما
يقول أرسطو إن الله و «الأحد» لا يشغل بغير ذاته، لأنه مستغن بذاته كل
الاستغناء أما العالم فقد شأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن
العقل من هذا التأمل، وإن العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وإن كان دونه في
مرتبة الوجدانية، ثم يعقل ذاته فيشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو
هو لقوة الخلق التي أبدعت هذه المحسوسات

«ومن البديهي أن صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئاً منه ينتقل من
المعطى إلى الآخذ فينقص بانتقاله، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا
تخرده من شيء فيه، ومن هذا امثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذي لا يعتريه
نقص بحال من الأحوال

«والنفس وهي المرتبة الثالثة في الوجود عند أفلوطين تتجه إلى لعقل
فتنسجم معه في مقام التحريد والتبرية، وتتجه إلى الهيولى فتبتعد عن استعز
والتبرية، ولهذا تحلق الأحسام وتصفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت
تتأمله وهي في عالم لقدرة الكاملة أو عالم الصور المحررة، وهذه المحسوسات
هي كالاطلاق للمفعولات قبل أن تبرر النفس في عالم «محسوسات»، أو هي
كأطياف العالم وهو يستعيد بالرويا ما كان يبصره بالعيان.

«عالم المحسوسات كلها أوهام وحلام، وكلها عشاء باطن يرباد بعداً من الحقيقة
كلما ابتعد من العقل وانحدر في اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة، فإن العقل
دور الأحد، والنفس دور العقل، والمحسوسات دور النفس، وهكذا تهبط الأمه حركات
طبقة بعد طبقة حتى تنحدر إلى الهيولى التي لا نفس معها، وهي معدن الشر في
العالم، لأنها سلب محض يحتاج أدماً إلى الخلق وهو الإيجاد أو الإيجاب

«وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية، ولها كالنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات فهي باتجاهها إلى النفس الكلية إلهية صافية، وباتجاهها إلى المحسوسات والأحاساد حيوية شهوية وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للحسد كما يقول أرسطو، بل هي جوهر منفصل عنه سابق له كأمثل الأفلاطونية، فلا تقبى الغناء ولا يحصرها برمان والمكان وهي تصدر من النفس الكلية اصطواراً كما صدرت من النفس الكلية من العقل الأول، مستجيبة لطبيعة الإصدار في ذلك العقل، ولشوق الهيولاني الذي يترفع بالهيولي إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات

«والشر في العالم هو الهيولي، لأنها سابعة تنس بالمعقولات وأروحيات التي لا تلبسها، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولي وقدمها وضرورة الملازمة بينها وبين العقل والنفس في دور من أدوارها وعلى النفس أن تحاكيها وينتصر عليها وعلى شهواتها، فإن أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة محالصة، وإن لم تفلح عادت إلى الحسد مرة أخرى وبقيت في كل مرة حراءها على الدوب التي اقترعها في حياتها الحسدية الماضية.

«ولا حرية للإنسان كما رأيت، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهيولي، ولكنه يقارم تلك الضرورة بجهد الشهوات، فيترقى من مرتبة الحس إلى مرتبة النأص إلى مرتبة الكشف، ويستقل من شتاب الحس إلى استجماع العقل إلى وحدة الأحد ورصوان الكمال، فتحريه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار، ولا محل بينه لشيء من الاختيار، وإن قال به أفلوطين في بعض الأحيان »

هذه خلاصة وجيزة حد لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين، يعتمد فيها على المرجع الأوروبية الحديثة التي نقلت مباشرة من اليونانية وقد نقل هذا المذهب مجملًا في بعض الأوقات ومفصلاً في أوقات أخرى إلى اللغة العربية، ووقع في نقله خطأ إسناد وخطأ تفسير فنسب الباقلون قصولا منه إلى أفلاطون رسيوا مبادئ منه إلى أرسطو، ولكن المتصوفة الإسلاميين وفلاسفة الإسلام في المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الإسلامي وهو تنزيه الأحد وعقيدة التحلي على الخلاء من لعباد وامتأملين، ورفضوا منه على

التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة النفس هي هذه الديب بردها إلى الأحساد التي تنشق فيها، أو مكافأتها بردها إلى الأحساد التي تترقى فيها إلى مرتبة فوق مرتبتها.

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معاً ما يوافقهم هي أنوار أفلوطين، فكان بالكشف وقدرة النفس على الخورق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الإمامة الدينية، وإنما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذاً بالأنيسة الفكرية، واستدل ابن سينا على إمكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى في الرؤيا الأنبياء بالمعانيات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقاها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة، وإن نفس الإنسان تتصرف في مادة الحسد فلا مانع أن تتصرف في مادة الكون بقدرة تستمدّها من علة العلل التي تتصرف في جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وحدوا في تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعوهم، ومنهم من كان يدعى أنه ابن الإمام على بالتسلسل الروحاني مع اعترافه بأنه من غير نسله في السلالة الحسدية زاعماً أن النبوة تحصل بالانتماء إلى الروح كما تحصل بالانتماء إلى الحسد ولم يكن في هؤلاء أحد من الفاضليين ولا كانت بهم حاجة إلى هذه الدعوى؛ لأنهم يصححون سبهم جميعاً إلى الإمام على بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم

ولا شك أن العلامة الشهرستاني كان يلخص طرفاً من مذهب أفلوطين كما وصّر إلى المشرق حين قال في تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات إن الله «لما وهب العلم للعالمين قين هو عالم، ولما وهب القدرة للقادرين قين هو قادر، فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة وأنه أبدع بالأمر العقول الأولى الذي هو تام بالفعل، ثم بتوسطه أبدع لنفس الذي هو غير تام ولم اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النفس إلى الكمال واحتاجت بحركة إلى الحركة إلى الخ»

وهذا المذهب في الصفات الإلهية يوافق مذهب أفلوطين في حملته، وفحواه بلا إعراب ولا إبهام إن حين يصف الله بالعلم لا يدرك من كنه العلم إلا ما يعطيت

إياه، وإنما حين مصف الله بالقدرة لا يدرك من كنه القدرة إلا ما يقدر عليه بأمر الله، وهكذا في سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه أنه إنكار لعلم الله وقدرته، إذ كان أصحاب الفيض الإلهي ينكرون مقائص الكمال ويرتفعون بالكمال الإلهي مرتفعاً تعجز عن إدراكه العقول

لكن هذا المذهب كف أسلف عرصه للحلط في فهم من يهرفون بما لا يعرفون، فإن هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلون وهو يناقص مذهب الحلون أشد المناقضة وينكره غاية إنكار، فإن الخلاص من أوهام المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التثريه والتطهير، ولا يتفق هذا مع انقواء بحلول الله سبحانه وتعالى في الأحصام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة لوجود وهما مذهبان متناقضان فإن انقائلين بوحدة الوجود يسبعون الصفة الإلهية على الموحودات جميعاً وهو قول يذهب أفلوطين جد السفي تدربها لله «الأحد» عن جميع المحسوسات والمتعددات..

ويسمع السامع أن حكمة الخلق تنجى في ناس بعد أناس هيخيل إليه أن اللاحق أفضل من السابق أو أن قيام مشيئة الله في كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء

هذا الخلط في فهم المذهب قد حسي على الحقيقة في غير طائل، وجر إلى الخطأ في الطنون لغير علة لولا حماقة وخفة العقل وحب الحذقة والادعاء

وقد كان ابن هاني الأندلسي من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون^(١) فيها بما لا يعرفون، ولم تكن حدائقه مقصورة على مذهب الإسماعيلية بل هي طبيعة نشأت معه في موطنه، ولعبت بالفلسفة وهو يتصص بصاحب إشبيلية فأقصاه خوفاً من اتهامه بمشاركته في أصاليه وخرعبلاته، وإنما مدح المعرف الفاطمي بقصيدته الرائية التي قال في مطلعها

ما شئت لا ما شئت الأقدار

هاجكم فأنت السواحد القهار

(١) أوهام، جمع وهم يعتمتين، حبل يرمى رمية أسطوانة فتؤخذ به الداية

(٢) يهرفون، عرف الرجل بصاحبه أطرى بالدح إعجاباً به

لم يكن يريد أن يقول إن المعر أقدر من الله وإلا لم قل بعد ذلك
وكأنهما أتت النبي محمد

وكأنهما أنصارك الأنصار

وإنما أراد أن يتحدلق بم سمع عن صفات القدرة والعلم وأن الله يوصف
بالقدرة لأنه يعطيها، وأن مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يتدبه لإمضاء تلك
المشيئة، فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به، ولم تكن به ولا
بمعدوحه حاجة إليه..

إلا أننا إذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الخدافة والمبالغة في
الشعر خاصة لم نجد في كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء لطريق من
عبارات المجاز والكناية، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء لم يسمع
مثله من إمام كبير كمحيي الدين بن عيسى في كتب التأويل أو كتب الترسل
الصريح، وقد كتب محيي الدين إلى فخر الدين الرازي رسالة يقول فيها «لربوبية
سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العم، وللعلماء سر لو
ظهر لبطلت الأحكام، فقوام الإيمان واستقامة الشرع يكتم بسرية» إلى آخر ما
قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحادية وفوق كل ذي علم علم

وهذا الكلام لولا ولع المتصوفة بالإغراب لقال قائله إن النبوة لازمة لأن الناس
لا يكشفون سر الغيب بغيرها وإن العلم لازم لأن النبوة لا تقصر إلى الناس
أجمعين وإن الأحكام لازمة، لأن للعالم برحه لعلم و لجاهل تزجره الأحكام
ولكن الإغراب في أساليب المتصوفة والخدقة في أساليب من يسمعون ولا
يفقهون أو من يفقهون الفلاس ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير - كل أولئك بقود
إلى الطنون حيث لا موجب للظنون

وجملة القوم بن الباطنية الفاطمية لو لم تقتصر بدعوة إلى قيام دولة تحارب
الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها انتهم
و لأقارب ذلك المصطرب، فقد كان كل مذهب في ذلك العصر «باطنيا» على نحو
من الأبحاء، وأوشك أن يتساوى في هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب
الفلسفة وإخوان الصفاء ممن يتذكرون العلم بينهم ويظهرون منه جذا بعد حين
ما طاب لهم أن يظهره

عالم الإمام العزالي - وهو من أقطاب أهل السنة ومبعضي الفلسفة - كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة وكان من كنيه ما يصل به على غير أهله والإمام ابن عربي المصنوف كان يدين بالسرية ويرى أنها تمام العلم والمعرفة، وأبو العلاء المعري الشاعر الحكيم كان في رأى داعي الدعاة يخفي ما يعلم عن أساس يلعن بعضهم بعضا ويتهم بعضهم بعضا بالكفر وامرؤق من الدين، وشعارهم جميعاً

حل جديد لك لسرام وامض عنه بسسسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

إلا أن يكون مدبوا لعص لا حيلة له فيه أو متحرراً لرسالة يهون فيها عبده أن يقول وأن يقال فيه

ومن لمحقق أن الباطنية لفاطمية إليها أضيف الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذي سيأتي ذكره في زمرتها، ومن هذا الكبير أنظمة لم تعهدها من قبل وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها، وأهم هذه الأنظمة نظام لعنانيين الدين كانوا عدة الرؤساء في حوادث الغلبة، الهجوم على المخاطر، هؤلاء لم يظهر لهم عمل في خدمة لباطنية إلا بعد نشوء لدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة، ولو كان للخلفاء الفاطميين حقد من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء حبساً من غير مذهبهم ولا من المحاملين لطوائف الإسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

* * *

بعد استند الأمير بدر الحماسي بالأمر دون الخليفة - وهو أمير الجيوش الذي منسب إليه حي مرحوش والجمالية - وحام أبيه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الأمر على خطة أبيه، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذهب الشيعة غير مذهب الإسماعيلية، فصادروا الإسماعيليين ونفوا أناساً من قادتهم وعلاهم من الديار المصرية وصاق الخليفة الأمر بوزيره ذرعاً فتحدث إلى ابن عمه في قتله عند دخوله إليه بقصر لحلافة وواقعه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه شفق على سمعة القصر من جرائر غتيال الوزراء والكبراء في رحابه، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله، وإعرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته وانفقا على اختيار أمأمون

ابن البطائحي بهذه المهمة فقبل هذا ما أمر به طمعا في الوزارة، ولم يجد البطائحي من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسبوا إليها خفية وشجعهم على الانتقام منه إغراء البطائحي لهم ووعدهم بالعفو عنهم وإسناد الوظائف إليهم متى آلت إليه وزارة الدولة، وبوكان مصام الفدائيين معروفا يومئذ في الدولة العاطمية لم استطاع وزير الأرمني المخالف لمذهب الإسماعيلية أن يسند بالإسم المطاع ولا احتاج الإمام المطاع إلى التفكير في اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة، ولا إلى تدبير تلك المؤامرة التي اعتمد فيها على الوعد والإغراء والاستعانة بدوى المطامع والتورات^(١)

ولا شك أن احسن من الصباح لم يعمد إلى نظام الفدائيين إلا بعد استيلائه كما سيلي - على قلعة «الموت» واضطراره إلى حماية نفسه من دول حوله تجرد الحيوش لقتاله، وهو في قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها في ميادين القتال

وقد تعيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها، وأمعنت في التحفي أو في «الباطنية» الواقعية حين أمعنت في الهجوم على خصومها وأمعنت خصومها في الهجوم عليها

* * *

أما قبل دخول ابن الصباح في رمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة في بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة، تسرع إلى التكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التي تمألاً عليها «مجوس أو يهود» بيئوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين، بل كان لربما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم في الخوف من الإسماعيلية، ولو أنهم قانو لأولئك الرعايا إن الإسماعيليين طلاب ملك يمتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة في حربهم والدلالة على مكانهم إذ كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم في أيدي أساس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وإن استحقوه بسببتهم، وأن أصحاب السلطان الفعان من أجناد الديلم والترك دخلاء

(١) البركات جمع ترة وهي النار.

على العباسيين كما كانوا دخلاء على العاطميين، فإن لم يكن خطر الإسماعيلية خطراً على الدين وعلى المسلمين جميعاً فهو خطر لا يهم الناس في كثير ولا قليل، ما دام مقصوراً على أصحاب العروش والدسوت^(١)

ولهذا راحت خرافة النسب إلى المحوس واليهود، وهي خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تزيدها الشواهد التاريخية، وكل ما ثغنت بسبته إلى أصحاب انباصية العاطمية فهو من المسائل التي يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين، بل يختلف عليها الشيعة الإماميون أنفسهم بين القائلين بإمامة موسى والقائلين بإمامة إسماعيل من أبناء جعفر الصادق، وليس وراء ذلك كله دسيسة تهدم الإسلام كله وتصليل المسلمين أجمعين

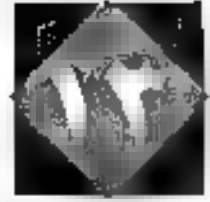
* * *

ومحس القول في المذهب لإسماعيلي من الوجهة الفلسفية أنه هو مذهب الفيض الإلهي كما اعتقده المتموقفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية، يضاف إليه القول بعصمة الإمام وأنه وحده القادر على التأويل الصحيح والإحاطة ببواطن التنزيل، وينبغي أن نذكر هنا أن القول بالعصمة ابواجبة لكل إمام كان مذهباً من مذاهب الفلسفة في حكومة المدينة العاصلة، فإن الفيلسوف الفارابي الذي كان يلقب بالمعلم الثاني قد طلب للإمام المدينة العاصلة كمال العقل و لعل والخيال والنطق والخلق والحلقة، ولعله لهذا كان قريباً من الشيعة محباً للمتشبعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الإمام على وأبذنه الأكرمين ولكن سب الجلاء جرى على أسنة صائفة من علاة العاطميين وغير العاطميين، فاستنكره عقلاؤهم وحكماءؤهم، واستنكره أدباً من لا ينكره اعتقاداً ولا يرى الخلافة لأحد غير الإمام على وسنة، ولا عذر من المنسبة لبطله على كل حال، ولكن الخلاف نقبيح الذي أطلق الأسنة بلعن على على ائمان سنيين أو سيعين سنة هو الخلاف الفبيح الذي أطلق الأنسنة بعد ذلك بالحرّة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

* * *

(١) الدسوت جمع دسنة وهو المحس وصدر بيت



حسن بن الصباح

أشربا في لفصل لسابق إلى التعبر الذي طرأ على نظام الدعوة الإسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح في رمرتها، وسنرى من حملة الأخبار والأعمال التي رويت عن ابن الصباح أن الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التي لا تتصدى لدعوة من ادعوات إلا أصافت إليها شيئا من عسدها وطبعتها بطابعها، وأنه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم إلى وجهته، بل كان من الدس بديرين الدولاب إلى وجههم حين يتعلقون به، ولا يدفعهم إلى التعلق به إلا أنهم لا يستطيعون أن يحلقوا لأنفسهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التي رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخير الصحيح والحبر الكاذب على السواء وهي الحنون بالسيطرة والعلبة وتنعمد أن تسميها الحنون بالسيطرة ولا تسميها حبا للسيطرة ولا رغبة فيها لأنه كان مطلوب لدفعه نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل إنسان، وبكر الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطبق العيش بغيرها، وبين من يطلبها لأنه يفصلها على عيشة بغير سيطرة أو يفصلها على عيشة الطاعة والإدعان للمسيطرين

ذلك مضطر إلى طلب السيطرة، وهذا مختار في المفاصلة بين الحصول عليها والاستعناء عنها وقد يفصل الاستعناء عنها إذا حشمه لطلب فوق ما يطبق وكان الرجل داهيا ولكنه لم يكن من الداهاء بحيث يستتر مطمعه ولا يثير المخاوف فيمن حوله

و لعله كان داهيا عظيم الداهاء، ولكن هيامه بالسيطرة وبدفاعه إياها كان أعظم من دهائه فابكتفت عايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك العاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون.

ومما لا ريب فيه أن الرخص لم تكن من العقلية بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التي كان يديعها ويتولى بشرها والدعوة إليها ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لب خيرا واحدا، بل على أنه كان من السمو الفكري بحيث بسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءه من الحقائق ولا سيما إذا كان التصديق هو طريقه إلى اسلطان والعلية وقهر الحصوم والانتصار على البطراء فمن مألوف النفوس - أو من مألوف هذه النفوس خاصة - أن تعتقد ما يرواها على هواها ويعزز إيمانها بمطمعها، كما يفعل المحب الذي يؤويه الشك ويؤديه العلم بعيوب محبوبه فيعرض طبعه على لبقين وتحصيل العيوب لأنها أريح له وأعوى به على هواه من عذاب الشكوك والكشاف العيوب.

وهذه الطبيعة المعهودة في أمثاله دور غيرها هي التي تفسر لنا أعمالا شتى يبذلونها خدعا مخدوعا في وقت واحد، وهو حصيف لا شك في حصافته، ولكن كيف يقع الحصيف في مثل ذلك السخف الذي له حتى يسوق له البطش بأقرب الناس إليه ومنهم ولده أو ولداه؟

يقع الحصيف في مثل ذلك السخف، وفيما هو أسخف منه، إذا كان مغويا على أمره مضطرا إلى يسوع دفعته بعقيدته بجلها في نظره وتلبسها ثوب الواجب الذي لا محيد عنه ولا هوانه فيه

* * *

أما إن حسرت الصباح كان مغلوبا على أمره في طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تصدق العيش بغير سلسل أو بغير السعي إلى السلطان، فإنه ما اتص بأحد قط إلا خافه على مكانته ويوحس منه على الرغم من دهائه وقطبته، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وقطبته لما تكشف منه دفعة الطمع في كل علامة وفي كل مكان

سمع في شبابه عن الشيخ موفق النيسابوري أن تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليمه في مراتب الدولة، وكان أس الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ لموفق معهد السنة في نيسابور، فلم يمهله ذلك أن يحترها لتعليم فيها على أمل في انجاه والسيطان.

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب «جامع التواريخ». وفي روايته عن صباح يقول إن سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك أنه كان يتتلمذ معه في مدرسة نيسابور فتعاضدا على المعونة إذا وصل أحدهما إلى منصب من مناصب الرئاسة، وأن ابن الصباح قد استنحى الوزير وعده بخيريه بين ولاية الري وولاية أصعهان، وكان ابن الصباح عالى المهمة فلم يفع بإحدى هاتين الولايتين، فاستبقاه نظام الملك في الديوان عسى أن يترقى فيه إلى مكانة أكبر من مكانة الولاة

والرواية على هذه الصورة عريضة المنقذ والمناقشة، ولكنها على كل حال يصح منها شيء واحد. وهو علم المؤرخين للرجل - من محبيه فصلاً عن مبعضه - أنه كان بعيد المطامع منذ صباه.

وحدث، وهو في الديوان أنه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بإبحاره قبل أن يبحره الوزير، فاحتدل هذا على إحباط سعيه وأوصد عليه الباب لدى أراد أن يندفع منه إلى مصعبه فوق كتفيه

وقيل في تعليل سفره إلى مصر للقاء الخليفة الفاطمي إنه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره إلى جانب علمه بأسرار الدعوة، فأراد المزيد من العلم بالشخوص إلى دار الحكمة في القاهرة، لعله يستوفى هناك علوم الإسماعيليين التي عابت عن دعاة العراق

ومن الواضح أن الشخوص إلى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذي لا تنصرف عنه همه طامع في مناصب الدولة فليس له مطمع في بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود، ولم يبق له إلا أمل واحد لا يصرف عنه، وهو بلوغ المنصب المرموق في عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكمة ' كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الإمارة والملك لو تمهد إليهما السبيل، ومن ثم زوج بنته للأمير المستعلي، ابن الحليفة، وأكره الخليفة أورين له أن يحتار المستعلي لولاية عهده، أملاً في الملك إن استطاعه لنفسه أو في توطين الملك لدريته من بعده

(١) الشكمة الحديدية المعترضة في قم الفرس - وقوم القلب.

ذلك هو أمير الحيوش بدر الحمالي أدى سبقت الإشارة إليه، وذلك هو البدر
أدى تحضر ابن الصباح لمصاوليه ومدورته بعد وصوله إلى القاهرة، فاختار
براراً لولاية العهد واحتار جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة،
واسم من أساس المذهب الإسماعيلي كل حجة يدعم بها ترشح بزار للخلافة
بعد أبيه فزعم أنه مثل بين يدي الخليفة المستنصر فوكل إليه الخليفة أن يدعو
إليه وإلى ولي عهده بين الأمم الإسلامية قال «فسأته ومن ولي العهد» فأشار
إلى نزاره

تلك قصة تشبه قصة الولاية التي صارت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق
وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته وإسنادها لأخيه موسى، فإن إسماعيليين
يرفصون تبديل ولايه العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتدره عن الباء

فلما راد لحسن بن الصباح أن تثبت الولاية لبرار أقام لها أساساً كالأساس
الذي قامت عليه الدعوة الإسماعيلية من مبدئها، وروى تلك القصة عن الخليفة
المستنصر (والأرجح عند أساس من ثقات المؤرخين أن الخليفة لم يدعه إلى
لقائه، بل أمره بدر الكرامة في دار الضيعة، ثم أبقاه على أمر يتردد بين
النقريب والإنصاء) ولكن ابن الصباح قد طار عليه الانتظار وأحس الحظر من
أمير الحيوش فجدد بحبائه من مصر، ولما يصدق بالحاجة، وراح بعد الإفلات
من الحظر يشئ له دعوة جديدة في المذهب الإسماعيلي، وهي الدعوة إلى
إمامة نزار

وراح الحسن يطوف في بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث
يأمر الرصد والمطاردة، وبدوا أن حوافر النفس العلابة كانت في تلك الفترة على
أشد ما تكون غلبة عليه، حرجاً بما لقيه وصيغاً بالمطمع الذي ينزعه ولا يعلم
المخرج إليه، فقال يوماً لأحد أصدقائه في صفهان لو أن معي صديقين أركن
إليهما لانتزعت من هؤلاء السلاحقة عرشهم فطن به صديقه الحنون وأوصى
طباخه أن يتخير لصيفه ما نطق من الطعام وطاب غذاؤه، وأدرك الحسن أن
صديقه قد خامره الشك في عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركته في هذا التطواف أنه كان يبحث عن أستاذه
القديم في الدعوة الإسماعيلية عبد الملك بن عطاش، وكان ابن عطاش قد ولاه

الوكبة عنه ثم رين به السفر إلى انقاهره وأطلعه قبل سفره إليها على أسماء بعض ادعاء المستترين الذين يلغاهم في طريقه، ولكنه يعرف من أستاذة مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التي تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتممين عليها، فم رل الحسن ينعب ابن عطش حتى ضفر بلفاته وورث من اطمئنا به إليه، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعها عليها

وواضح أن تحارب الحس في رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بني العباس وخلفاء الدولة العاصمية قد أياسته من الوثبة إلى السلطان من طريق الولاية، ولكنها لم تينسه من لوثبة إلى السلطان حيث كان لاستقرار هواه في طبعه، فطمحت به همته إلى معق من امعاقل في أصراف الدولة يفرد بحكمه ولا تمتد إليه فيه يد ملك أو خليفة وتحيير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم، فخرج إليها مع رهط من صحبه وأتباعه، وقيل إنه تلقى من مصر في هذه الأثناء ولذا لنزار ببيعة بالإمامة وعمل باسمه ودعا إليه، حتى انتهى به المطاف إلى قلعة يقيم فيها زعيم من الفويين، فاستضافه ، فأبرله على الحرب والسعة وتغاضى عنه وهو يبشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله، ثم أحكم أمره كما بقول ابن الأثير فطرد صاحب القبة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها وساعده على ابتداعها أنه خيل إلى أهل الأقليم أن مجموعة حروفها بحساب اجمر توافق تلك السنة الهجرية سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهي مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والياء التي تتألف منها كلمة الهاموت وأتم الحيلة في أذهان القوم أنه فسر لها لهم بمعنى النسر المعلم من (إله) بضم اللام بمعنى السر في الفارسية و (اموخت) بمعنى المعلوم أو المضمم، يماء من العيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة، والدين في مذهب البابوية تعليم لا يستغنى عن الإمام في كل زمان!

* * *

(١) ينطق اسم القلعة «آلامرات» أو «آلورت» بفتح اللام.

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة العجيبة التي ترحى^(٩) الأحاديث عندها بين الناس فيصدقونها، لأنهم بحسب الاستماع إلى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حدث عجب أن يعطروا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة.

من هذه الأعاجيب أن احسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أسدده الطبيب ابن عطاش فسخره في بشر دعوته، وأنه توصل به لإقناع أتباعه بروية الحبة عباداً، لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم إلى حديقة عمرت بمجالس الطرب التي يتعنى فيها الفنا وتتلعب فيها الرقصات ثم يرحلهم منها وهم في غيبوبة لحدرو ويوقع في وهمهم ساعة يستيقظون أنه قد نقلهم إلى جنة الفردوس وأنه قادر على مرحلهم إليها حيث يشاء، وأنهم إذا ماتوا في طاعته ناهبون بشهادة أعينهم إلى السماء.

قالوا: وإن هذا الإفساح أو هذا «الإيمان العياني» يعسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأحبادهم فيجمعون عليهم ويغتافونهم غير وحلين ولا نادمين، وإن كلمة «أساسين» Assasin التي أطلق في العرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع إلى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة إلى الحسن بن الصباح، وقالوا: إن الفتى من أتباع شيخ نحيل كان يبيع من طاعته لمولاه أن يشير إليه الشيخ برلقاء نفسه من حائط فبلقي بنفسه ولا يتردد، وإن أحدهم كان يقيم بين حدد الأمير المفصول بالبقعة ويتكلم لعنتهم حتى لا يميزره منهم، وأنه يفعل فعلته ويتعمد أن يعنها جهرة ولا يحتد في الهرب من مكانها، وإن أمهات هؤلاء العدائين كن يزغردن إذا سمعن خبر العدا ويكيبن إذا عاد الأبناء إليهن ولم يفلحوا في اغتيال أولئك الأعداء.

وطر الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه إلى عهد الرحالة البرتغالي، «ماركوبو»، الذي ساق في المشرق في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، ولا يزال هذا التفسير الخرافي مقبولا في القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين وأقراء

(٩) ترحى رعى الرحن النشء وأرجاه معه برعد وعلا حاجتي سهل بحصيلها

وبحر يستبعد حدًا أن يكون الحبة المرعومة صل في بلعة حسر بن الصباح،
فإن التكذيب أرجح من التصديق في كل خط من الخيوط التي سجت منها بقصه
ذلك السبج الراهي المريب.

إذ الحسن بن الصباح كان معروفًا بانصرامة والشدة على نفسه وعلى
أتباعه، وكان يتنكب ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه، ولم يكن
من اليسير في تلك الفلاع المبعردة أن يحفى أمر القيان ومجالس الراقصات
والغناء وما ضوياً دور أن يطلع عليه المقربون إن لم يظنح عليه جيرة الفلعة
أجمعين، وليس من المعروف عن مدخى لحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه
في وقت واحد، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس، وليس
من المعروف عن الحشيش أنه يهين صاحبه لمواقف الإقدام على المخاطر
والإصرار عليها شهوراً أو سنوات

ومن المصقق أن شيخ الحبل لم يطلع أحدًا على سره، وأن أحدًا من المؤرخين لم
يشهد تلك الحبة بنفسه ولم يسمع رويتها من شاهد بعينه، فهو من العسير أن
يقتنع مصدر هذا الخيال من روايات الرمن الذي شأت فيه وسرت منه إلى ما
بعده من أرمئة القرون الوسطى؟

* * *

إن روايات هذا الخيال قد شأت بين المسلمين ولم تنشأ بين المشارقة، وقد
كان الصليبيون في حاجة إلى تأويل شجاعة المسلمين، وهم في عرقهم قوم
هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح، فحطروا لهم وقالوا وكروا إليهم يستमितون في
الجهاد، لأنهم موعودون بالجنة التي تحرى تحبها الأنهار وترقص فيها الحور
لحسن، إذا استحباوا الشهادة في سبيل الله

واستغرب الشجاعة من العذائين هو الذي أوجهم إلى سبب كذلك السبب
أو أعرب من ذلك السبب، وقد كان ماركوبولو في روليته يقول إن العذائين
صدقوا شيخ الحبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبي عليه السلام،
وكأنه يقول إليهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون، مهم في شجاعته
مخدوعون

إن القوم قد عحبوا كيف يطيع الفدائيون شبحهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم هم يتحילו لذلك سبيلًا عبر الحجة الموعودة، وعرفوا الحشيش، فالتمسوا فيه سر الجنة التي تروى في هذه الدنيا رأى العيان وقد جاء ذكر الحشيش في كلام مؤرخي المشرق وذكر بعضهم أن أساسًا من شيوخ الطرق كانوا يستنشقونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة، وذكر البدرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الإسماعيليين، أما حبه «الموت» المرعومة فهي من مخترعات لعرب لا نعلم أنها وردت في كلام مؤرخ إسلامي قديم ولا أن أحدًا من مؤرخي العرب أسندها إلى مصدر من المصادر الإسلامية ولو كان بها مصدر من المشرق الإسلامي لكنت كتب الشرق ولى بابتداعها من كتب الأوروبيين.

وأول دلائل البطلان في هذه الخرافة أن وجه العرابية الذي دعاهم إلى اختراعها غير عريب، فإن البخوة اللدنية كانت أقرب شيء إلى أتباع الأنمة في ذلك الزمن ولا تصلح رؤية الحجة عيان لتفسير تلك البخوة في عجائب الغناء فضلاً عن الفتيان المجردين للفداء فإذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الحجة عياناً، فاعجب لأمهاتهم اللاتي كن يفرحن بفقدنهم ويستحسرن لحياتهم كيف ملكن جأشهن بغير تلك الآية التي رأها أبائهن رؤى العيان»

* * *

لقد كان لأمل في ظهور المهدي المنتظر رحاء كل نفس وحديث كل لسان في ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية، وكانت فترة العصر أشبه شيء بفترة آخر الزمان أو بأشراط الزمن الذي يظهر فيه المهدي المنتظر ليملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وينحون بأتباعه ومصدقيه إلى حظيرة الخاد والسلام، وكان شمع الحبر يتخير لتربية العدائين فتياها أشداء يتعرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبنخوا الحطم، ثم يأخذ في تدريبهم على المشقة والصاعة وهم دون الثامنة عشرة وأكثرهم من أبناء الحبال في تلك الأطراف التي بشأ أبائهم على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والإيمان

وكان الإيمان بالدعوة العلوية قد شاع في تلك الأطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم في بغداد وكانت شيخ

الحبر إرادة من حديد تتسلط على أحياده تسلط «المبوم المغباطيسى» على المدرّبين عنده على النبوة، فلم يكن في طاعة هؤلاء وإقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة إلى رؤية الحنة بالعين، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من البخوة التى أدكأها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين فلا يحتاج الفتى المدخر للاستشهاد إلى دافع أو حافز، بل لعله يحتاج إلى الوازع والرقب.

والمؤرخون الأوروبيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم فى الجماعات السرية كثيرين، منهم من يحس التفسير ومنهم من يسيئه، ومنهم من يسرع إلى الاتهام ومنهم من يترث فيه، فمن الذين أحسروا التفسير إيفانوف الروسى صاحب كتاب «مؤسس الإسماعيلية المرعوم» The Alleged Founder of Isma'ism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرحسون الاختلاف من قبل «لأساتذة المريدين» الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم فى العلوم وفقه الدين، وقد عمّ الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة «آلموت» من «المهدى» حس بن الصباح ورشيد الدين سنان» وسائر هؤلاء الدعاة

فأما بن حس بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه هند الخصوم ولا عند الأنصار، فهل يصدق القول عليه أنه هو يخدع ولا يخدع وأنه هو يسوق ولا يساوى؟

* * *

الراجح عندنا أن هذا «المهدى» لم يكن خيوا من لإيمان بدعونه على وجه من الوجه، وأن عمله فى الدعوة عمل حاد غير هارر وصامد غير متردد ولا داعى للشك فى إيمانه بعمله وإن كان هناك شك كبير فى إيمانه بكل ما يقول لسمعيه ومتبعيه

وما بالنّا نتخيله خلوا من الإيمان منصرفا كل لا بصراف إلى التضليل والخداع؟ أليس من دواعى الإيمان أن يكون الإنسان مدفوعا إلى عمله غير هارر على بركه؟ أليس من دواعى الإيمان أن يكون اعتقاد الإنسان فى عمله خيرا من اعتقاده فى أعمال الآخرين؟ أليس من دواعى الإيمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من عمله حجة لتلك الرسالة؟

من «التنويم الدائى» معروف متواتر، وأنه لأقوى ما يكون حين تدفع إليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها، ودريعة لها عذر من أحوال الرمن ودواعيه وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل أن ترسخ فى طويته بالإقناع الموجب واضحاً أو وسطاً بين الوصوح والعموص ومعنى بالرسالة السلبية أنه آمن إيماناً لا مثوية منه بفساد العصر وصلال نوى السطان فيه، وأنه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب

ويقدر بهذه الرسالة السلبية رفعة نظرية إلى السيادة والسلطان، مماذا يصنع بهذه الدعة إن لم يعمل بها عملاً قوياً متضل العريمة والثبات، إما أن يستكين إلى سيادة غيره والموت أحب إلى أصحاب هذه النفوس العالبة المغنوية من استكانة الخصوم، وإما أن يمضى قدماً ولا يد له من مسرع وبرهن - وليس أسرع إلى السريرة من انسوع وبرهان حين يحوان من العرق فى حجج اليأس ولانكسار وظلمات الفشل وانهاون

وقد قال دعى الدعاة فى ذلك العصر إن الناس كانوا بين رحلين، رجل لو قيل له إن فيلا صار أو حملاً باص لما قابله إلا بالقبول والتصديق «أو متحل للعقل يقور إنه حجة الله تعالى على عباده، مبطل لجميع ما الناس فيه، مستحج بأرصاد الشرائع معترف مع ذلك بوجود «مساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها، لكونها مقمعة للحاهلين ولحاما على رعوس المحرمين المجارفين».

* * *

وهذه عقيدة قوم لا دعة فى طبعهم إلى طلب السيادة والسلطان وليس فى طويتهم ما يثيرهم إلى الحركة. إذا أثروا السكور، فإذا كانت هذه العقيدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى فى نفسه إلا أنه أهل للقيادة والإمامة، وأن الذين حوله أمس بلقمع والنكار، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة وانغاصة بتحقيق غاية على يديه، هى أصلح مما هم فيه، وأصلح مما يحفظونه على أيدي سواه

وقد سوع أفلاطون في جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعصبين أساسيين، وسوع فيثاغوراس من قبله حب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر إلى المريدين بالرموز والإشارات، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذاً بدعوة السيادة، وليس هي زمانها دعوة سرية عامة كالدعوة التي لفت حسن بن الصباح من رأسه إلى قدميه فلم لا يسوع هذا المذهب في قيادة الدهماء لحسن بن الصباح؟ وهن من البعيد أنه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع على أفلوطين؟ إن القول بافتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجع متواتر، فليس مما يحل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته إلى عناية الله يتوجه به حيث أراد.

* * *

إن المؤمنين الخالصين للإيمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الدرة بين بنى آدم وحواء، وما من أحد آمن بعقيدة إلا عرف في بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين.

وتسعون في كل مائة، إن لم نقل أكثر من ذلك، يؤمنون بالعقيدة إيمان الوقية أو إيمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة، وإذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لفائد مجدد أو دليل مرشد، فأحرى بهذه القوة أن تقنع وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه، وعلى أصحابه مستحقها منهم الطاعة والتسليم.

ثم يكن حسن بن الصباح خلوا من الإيمان بعمله فيما يرى، ولم يكن عسيراً عليه أن يركز إلى دعوة يغريه بها ضروره الفطره، ويحصه عليها فساد الراس وسهولة المسوغ لخروج على المفسدين فيه، ولا يعر عليه أن يعررها بعلامة من علمه انواصح أو من عمه الغامض وما يلتصع فيه من بريق يثبت عليه بالإلهام حيناً بعد حين، فما عاش الرجل بقية حياته غائياً عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه، وبين هذا وذاك مرحلة الغالب المفلوب والخارج والمخدوع.

استولى الحسن على قلعة «الموت» في سنة ٤٨٣ هجرية ومات في سنة ٥١٨ هجرية، فظل مالك لتلك القلعة بأسط نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة، لعله كان خلالها قوى رحل في الديار الإسلامية من مراکش إلى تخوم الصين.

ورلى عهد، وتسمى باسمه دى وانتحل البتوة الروحية للاقتساب إلى الإمام واستعان بتعدد المراجع فى المذهب فانفتحت أمام احسن أبواب الدعوة لنفسه باسم «نوار»

ومات «المستنصر» الخليفة العاطمى سنة ٤٨٧ للهجرة فساعد ذلك لإسماعيل على انتصار المرحع الذى يرويه أن يدعيه، فهو حجة ومهدى وإمام كما يشاء

* * *

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث الحية، و لعيلة، والعنة الدخيلة فمن الحيلة أن السلطان السلجوقى ملكشاه سير إليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين، ولم يستكثر من الحد كما أوصاه وزير نظام الملك استخفاً وبشأن القلعة وحاميتها، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الخرداء والقفر الموحشة وطال على حدوده العهد بلهو العواصم والحواصر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمر فيما تحمل من المتع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر، فما رقت أيديهم على رفاق^(١) الخمر حتى أفرغوها فى أحوافهم وانطلقوا يقصرون^(٢) ويهزحون، فانقصت عليهم حامية القعة وأمعنت فيهم قتلاً وبهاً وتشريد، من دور أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ إلى نصيحة وزيره فى هذه المرة، فصيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها ويطست الحيلة فاعتمد لرحل على الغيلة، وأرسل إلى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله فعاد الجيش الذى سيره الوزير إلى حيث استدعاه ملكشاه، لحاحته إليه فى اتقاء الفتنة واتقاء العارة من المقول

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث فيموت ملكشاه ويرغم الأتباع والأشباع أنها كرامة المهدي تنجيه من أعدائه واحداً بعد واحد، ويتمبه الرجل إلى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائقة فلما شبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن يبصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظهر بأخيه، فيسلط على الجيش المنتصر

(١) رفاق الخمر جمع زق (بكسر الزاى): الجلد يتخذ للشراب وغيره

(٢) يقصرون: قصف القوم: أقاموا فى الأكل والشرب واللهو

سلاح الحيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المحاريبين في شك ممن هو معهم ومن هو عيهم، وقد يشيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير أنه من الإسماعيليين «أصبح حيين» المستترين، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب إليه ويظهر العداء لآل الصبح ومتبعيه

ولما آل العرش إلى السلطان سحر بن ملكساه، وكان من أقوى الملوك وأغنام في عصره، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصبح وقيل في أسباب المصالحة إنه كان من أهمها شك السلطان في حاشيته وقواده وأجناده، وتخرفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس إليه وهو لا يعلم، فتعاقد مع ابن الصبح على المسألة وترك له جباية المرائب والإتاوات^(١) في إقنيمه ويروي أنه وجد في طريقه لى حصار «آلموت» خضراً معروفاً في مرأشه مكتوباً عليه إن الذي عرسه هنا قادر على أن يعمده في صدرك. وأنه سمع عن أمرء الحصون أنهم يصمرون العقيدة الباطنية ويخلبون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر من شيخ الجبر، فآثر المسألة على القتال

* * *

ولم يبار شيخ الحبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشاركة ولا هودة، فانقسمت الدعوة الإسماعيلية على نفسها وأصبح لها في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان أحدهما معسكر ابن الصبح يدعو إلى نزار ويدعى المهدي لشيخ الحبل ويحارب المعسكر الآخر من الإسماعيليين، والثاني يدعو إلى المستعلى وأبناؤه وبقيت مسها اليوم طائفة الإسماعيليين المعروفين باسم البهرة، يقولون إن المهدي المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة «الأمر» الفاطمي وأنه يحصر موسم الحج في كل عام فمن رأى الحاج جميعاً في موسم من مواسم الحج فقد رآه

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين في حياة الرجل في السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموت إنه لم يكد يفارقها بعد دخولها، ولم تكن له أسرة فيها

(١) الإتاوات: الإتاوة المال الذي يؤخذ على لأرض المراجعة

غير امرأته وولديه. وهذا الرعيم «البطى» الذي قيل عن مذهبيه إنه ذريعة إلى استباحة المحرمات والتهالك على البسات قد اتفق للكاتبون عنه على رده واعتكافه وعروقه عن المباح من الأطياب، فضلاً عن الحرام، وزعم بعض المؤرخين حين قتل أبه أنه قتله لمخالفته إياه في شرب الخمر على الخصوص، ولم يقتل وبدا واحداً بل قتل ولديه الاثنين وهو في شيخوخة لا مطمع له بعدها في البرية. وهذه هي جيرة أخرى من حيرات لا تسمى في مسلك هذا الإنسان المحيى كله، وهي مسلكه قبيل وفاته على الخصوص.

* * *

هل هو مجنون مطبق الجنون؟ إن المحنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل آبائه في شباب ولا شيخوخه، وتروى بهذا عرابة القتل ولكنها تروى لتخلوها غرابة أعزل وأدهى، وتلك هي قدرة المحنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عما بعد عام، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين ورائه وأعوانه ومنهم الأركاء والذاهة وفيهم الشحاعة والهمة والإقدام.

هل له عقيدة يصبر في سبيلها على الشظف والصنك ويستبجح من أجلها إراقة الدماء. دماء الأبناء كدماء الأعداء؟

إنه خلق العقيدة الرارئة خلق ومن البعيد أن يخلق العقيدة وينضج بها ويصبر في سبيلها على ما صبر عليه ويستبجح في سبيلها ما استباح والذي يبطل الحيرة هي اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الإنسان العجيب.

ونبدأ فنقول إنما ينبغي أن نستغرب من حسن بين الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيرهم. ولو كانوا معظم الناس.

فالتغريب في ظباع الناس تصرفهم من الحمار الأبورى أو فتور هذا الحمار فيهم، ولكن هل خلا الحمار البشرى من أحاد يهون عندهم احبائهم في جانب السوازع القوية التي لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان؟ هل خلا الجنس البشرى من أحاد نراهم يبيب تستهويهم الشهوات الضعاف فضلاً عن ابشع الشهوات الكبار فلا يبالون ما يصيب أباءهم من حراء تلك الشهوات؟

وهو من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين نملكهم بزرعة تطعى
على حبان الأبوة

كلا ' ليس هذا بالبعيد على الإطلاق، بل هو دأب الطامحين من أمثاله إلى
السيطرة، ودأب الذين يهون عليهم شطط العيش ولا يهون عليهم الخسوع والبقاء
فى روايا الإهمال. وقد يكون ابولادان الدار أمر بقتلهم قد تأمرا عليه مع بعض
أعوانه المتطلعين إلى مكانه كما جاء فى بعض الروايات، وقد يكون أحدهما هو
الذى تأمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر أنه لا يعسع ولا يؤمن على
مصير الدولة بعده وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المسروع المقبول
أمام صميره لإقدامه على البطش بالعرباء فى هذ السنين

* * *

فإذا كان الظن بحنوبه المصنق حيرة وكان الصر بغفلته حيرة مثلها، فأنفى
الضنن للحيرة أنه أطاع طبعه فى طلب العلية على لرعم منه، وأنه اتخذ من
فساد زمانه حجة على وحب رسالته وقداستها، وأنه راض نفسه على شذائد
تلك الرسالة لتكون الشذائد التى يصطنع بها حجة به على صدقه ومطاوعة
طبعه، وأنه كان عرصنة لسورة العصب وبوبة الفتك فى أزمان طبعه ولكنها
سورات^(١) بويات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال، وهذا كله جائز غير
مستعرب أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمر له ولا
غواية من وراء عمله غير الخداع والنصليل، أو أنه معص لا يدري موضع الغفة
من سريره، وهو يتسلل بالإقناع إلى سرائر منات والالوف، ومنهم الأركياء
والألبياء والحصفاء

(١) سوريات السورة الشدة والشرورة والسطوة.

"

"



السرية الباطنية

ولعل سيره شيخ الحبل في بغانضها، المعلومة هي ألرم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الإسماعيلية على التخصيص، فهذه اسرية كانت تشتد وتتراخي تبعاً للعمل الذي ينوطه الإمام بدعائه، لا تبعاً للفكره أو للعقيدة التي يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى

كانت السرية تشتد كلما خشي دعاة الإمام في بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنصح لمهمتهم وأعوذ على تشتيت أعدائهم وتبليد الأفكار فيما حولهم وكانت تتراخي حتى لا سرية على الإطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤانية لهم ولسياستهم وقد يعقدون المحاسن ويحاضرون في الأندية العامة لإعلان آرائهم ويقنع معارضيتهم كلما اطمأن بهم المقام في ديارهم

* * *

ومن لحائز أن تكون تلك الأعمار مرتبطة بالعقدة الخاصة في الإمام حين يكون تعظيم الإمام وتقديسه لارمين لإقناع الداعية أو العدائي بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال في غير إشفاق على حيائه أو حذر من عاقبة أمر، ففي هذه الحالة يتصف الإمام بالقداسة التي توجب على المرید طاعته وتصم به العجة في هذه الدنيا أو في الدار الآخرة وكثيراً ما يستغنى الإمام عن المغالاة بقداسته في الأزمنة العصيبة التي تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشع فيها الأمن باقتراب الأوان الموعود وتوالي العلامات والأشراط التي تؤذن بظهور المهدي وانتصار رمرتة على أعدائهم وأعدائه فبد شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة للإمام إلى عقائد المبالغة والمغالاة في أمره، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأتمر بدعوته جند مصدقون مطيعون

وإذا أردنا التوسع الذي يشمل جميع المذاهب وينظم مذاهب السنة والشيعة جميعاً ولا يخص الإسماعيلية أو المرارية وحدها فالحال على الإمامة هو محور

كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة فكل ما عزر ضرورة الإمام الحى فهو من عقائد الشيعة وكل اختلاف أدينا أن يعرف عقيدة الشيعة فيه فليرجع بحائى الرأى إلى محور الخلاف كله، فأيهما كان أقرب إلى ضرورة الإمام الحى فهو من مذهب الشيعة، بغير حاجة إلى البحث الطويل والاستقصاء أبعد

* * *

وقد لحص العزالى هذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال «الصواب أنه لا بد من الاعتراف بالحاجة إلى معلم وأنه لا بد أن يكون لمعلم معصوماً، ولكن معصم المعصوم هو محمد ﷺ فبنا قايروا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب، فبنا قالوا معلمنا قد علم الدعاة ويثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم بن اختلافوا أو أشكل عليهم مشكل، فنقول ومعلمنا قد علم الدعاة ويثهم وأكمل لتعلم إنا قال الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وبعد كمال التعليم لا يصير موت المعلم كما لا تصر عيبته ببقى قولهم كيف يحكمون فيما لم يسمعه؟ أهبالنص ولم يسمعه، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مطنه بحلاف؟ يقول بفعل ما فعله معد رضى الله عنه - لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، إنا كان يحكم بالنص عند وجوده وبلاجهاد عند عدمه، بن كما يفعله دعائهم إنا يعدو عن الإمام إلى أقاصى الشرق، إنا لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فإن النصوص امتناحية لا تستوعب الوفائع غير المتناحية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام، وإلى أن يقطع امسافات ويرجع يكون امستغنى قد مات أو مات الانتفاع بالرجوع فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده، إنا لو سافر إلى بلدة الإمام ليعرفه القبلة لعاب وقت لصلاة فإذا أجبرت الصلاة إلى غير القبلة بباء على الصن - ويقال إنا المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجزان - فكدك فى جميع المجتهادات.»

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض مما كان منه أقرب إلى تعليم الإمام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنين، وجميع

المقربين للإمامة على مذهبهم كالرنديين. وهذا هو الذي يؤيد أن مرجع لسرية كله هو رأى في الإمامة لا عقائد مستورة أو خلائق محنفة لأدب الدين أو العرف بين المسمين وغير المسلمين

* * *

خذ لذلك مثلاً إعلان بدء الصيام فإن رؤيته أهلاً فيه كافية على مذهب السنيين، ولكن هذا الرأى يعنى عن إعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الإماميون، بل يقولون إن المسلمين كانوا في حياة النبي - عليه السلام - يصومون حين يصوم فلما أرمع السفر سألوه عن موعد الصيام فعرفهم «صموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، ولم يكلهم إلى الرؤيه قبل ذلك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون.

ووجود علم مستور يتعلمه اناس من الإمام دون غيره هو العقيدة التي لا محيد عنها لمن يقولون بالإمامية وإنما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين، فقد يكون «علم مستور» هو تأويل القرآن، وإحابة كل سائر عنه بما يقدر عليه، وقد يكون اعلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد في طاعتها توقفاً على فهمها، فإنها لو كشفت في بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى السر اعلم فهي مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستعينون عن تعليمها بالاعتداد عنها وقد ترخص بعض الإماميين في أمر لعصمة الواجبة للإمام فأباح بعضهم بقدر الإمام كما فعل حسن بن الصباح في مقد الخليفة المستنصر، بل كما فعل داعي دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازي الذي سبقت الإشارة إليه، ولكنهم يقولون أن الامام بصب وهو مختار ويجرى مع الخطأ وهو مكره ولاسيم في اختياره لولي عهده وصاحب الإمامة من بعده، فإن من اختاره صانع فهو الصواب المصاع

* * *

لقد صاحبنا منشئ «الإسماعيلية الجديدة» من عهد بروره في ميدان الدعوة الفاطمية، ولم يبدأ يسيرته من نشأته الأولى لأن حياته العامة لا تتوقف على أخباره في أوائس نشأته مما مر خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه

وبحلتها، فهو ينتسب إلى اليمر ويذكر من نسبته أنه الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميري، ومنكرو دعواه يقولون إنه قروي من خراسان. ومنهم من يقول إن أباه كان يعمل في الصياغة، صناعة الصبغة على شواطئ بحر العجم

* * *

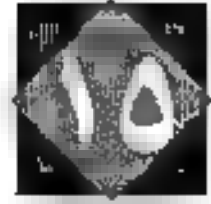
والثابت أنه مات ولم يظهر له في حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته، وأن دعوته لم تفلح في بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطبيب ابن الأمر التي كانت تماقض الدعوة إلى برار أمام الحسن المختار، وقد أوصى لحسن بعده لرجل فارسي عريب عنه لا تربطه به نسبة، وبعده من أقربائه المستورين إن صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمر

ورويت عن صباح تلك القصة التي جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقاة المؤرخين، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ هـ) فإذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا إذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات، وفي ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأيا كان الخبر الذي يثبت من أخبار صباح فهو لا يعير شيئاً من ملامح «الشخصية» التي برز بها في التاريخ، وهي شخصية المعاصر صاحب الدعوة التي انقطعت عن جذورها واتصلت به وبعاياته ومراميه

وهذه بعد شخصية أثبت في ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث في الدعوة الفاطمية، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التي اقتربت بالفاطمية في تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول

* * *



بُناة وهدّامون... ومهدومون

بسبب قيام الدولة الفاطمية إلى جهود الدعاة الذين ابثوا في المشرق والمغرب وافبتوا في تبليغ الدعوة سرّاً وجهرّاً إلى كل طائفة بالوسيلة التي تلائمها، ويغلو بعض المؤرخين في شأن هذه الجهود حتى يخبثوا بمن يقرؤهم أن غير هذه الجهود لم يكن به في إقامة الدولة الفاطمية شأن در بال.

ولا شك في براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها في التمهيد لقيام الدولة، ولكن لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسعى إلى العصية ولا يحسن وأن فريقاً من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويصرون قصصهم وأن الدعوة لو انصرفت كلها إلى لخدمة ولتمهيد ولم ينصرف شيء منها للإساءة والتنفير بما بلغت غايتها إن لم يكن جو العالم الإسلامي متهيئاً لقبول نظام حديد والإعراض عن نظام قديم والواقع أن جو العالم الإسلامي قد تهيأ في القرن الثالث لقبول هذا التبدل في نظامه، وكان هذا التهيؤ من شقين شق ينكر النظام القائم، وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطى عليه

وكانوا يسمون ذلك دالات الحوم، فيربطون بين مشيئة الإنسان ومشيئة الكون كله، ويسوح لهم حين يريدون التغيير أن يتعير كائن ولو لم يريدوه، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التي تحفظ حين تلفظ، ويسمع الناس «إن الشمس ستشرق من مغربها» فيهمس بها بعضهم إلى بعض، ويحب السامع مما سمع فلا يساه

وقد كان علم الحوم قد استفاض في كل مكان، وليس أكثر من مقارنات الفلك التي يحسب المنجمون أنها علامة العيب على الغير والأحداث، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائماً بتلك العلامات وهم الذين يركبون إليها ويترقبونها، ولا سيما حين تكون علم الحوم علماً يحبه المحذرون ويمارسونه، ويبغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من وراءه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد أمدح وحسب حين قال عن النجم
دبي الدني في زمانه

أبن الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فسيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلباً أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهباء داميه
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الدني

ولكنه في الواقع كان ينظر في أوائل القرن الثالث إلى الوجيهتين
المتقابلتين وجهة لراصين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها
ومارالت الوجيهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن عية التأول وعية
التشاوم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعاني «وكان أهل النجوم والحساب يدكرون ظهور المهدي
بالله ويبشرون بدولته، ثم إن الصوت والأصداق أيقنوا بذلك، وإن صاحب الرمان
تقدم لهجرة إلى المغرب والمهدي في كنفه حتى يكون أوام ظهوره وطلوع نوره.
وأن يكونه بالشمس الطالعة

وكان المهدي نفسه على علم بمراسد النجوم، فكان يتقاع بمعارناتها ويبشر
بها أتباعه، وهم معير هذه الإشارة مصدقوه، فإذا علموا أن الكون كله يتأهب
«لطلوع اشمس من المغرب» فقد بلغ لتصديق عاية اليقين

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم كما جاء في المقريري - أنه قال في سنة
اثنتين وخمسين ومائتين إن الإمام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة
ويظم العهري هذه النبوة فقال

ألا يا شيعمة الحق	دوي الإيمن والبر
ومن هم نصرة الله	على التخويف والرجس
هعند السن والتس	حين قطع القول في العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون في أرصاد «سحوم» علامات
رونها إلى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع، فقد أبو طاهر
القرمطي

أغركم مني رجوعى إلى هخر
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ في أرض بابل
وقارنه النجاش، فالحذر احذر
فمن مبلع أهل العراق رسالة
ببأسى أنت المرهوب في ابعدو والحصر
أنا الداع للمهدى لا شك أننى
أنا الصيغم اصبر غام والحية الذكر

وقد نقدم أن الناس طموح بأبى اعتلاء المعرى أنه من رصدة الحوم، فإذا بلغ
برمان أن يتعرف فيه الصرير أرصاد لسماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية
فعنها، سواء أكان حب التغدير هو الذى علق الأبصار وابصائر بمسالك الكواكب،
أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتعبير وتطلعهم إلى
الغيب من بصير وصرير

وفحوى ذلك كله أن السماء ولأرض فى عرف أبناء القرن لثالث بلهجرة كانتا
تتطلعان إلى شئ، وأن الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويشاءون، وأحرى الناس
أن يتفاءلوا بعلامات التعبير هم صلاب التعبير

وجاءت الدعوة العظمى إلى قوم متبرمين أو قوم غير مكترئين بالدفاع عن
النظام القائم أو دفع النظام الجديد

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يعصونها أو يكررون حقها ومن
كان منهم لا يكرحق الحلفاء العباسيين فهو مبكر لسطان الترك والديلم، معتقد
أن أهل البيت المعجلين خير من أهل البيت اموليين، أو أهل البيت الذين تولت عنهم
الولاية عجزاً وسفهاً فليس لهم منها غير الأسماء

* * *

وكان بعض العباسيين يأبىء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه فكان مع لعباسيين من خدامهم وأعوانهم من بقدرين صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش في بغداد ولولا عامر من عمال بني العباس في الرملة لا اعتقل المهدي وقتل قبل أن يصل إلى المغرب حيث أقام الدولة يقول حمير صاحب في سيرته «وصلنا إلى الرملة فزلب بها عند عاملها، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي كيف يخدمه ورفع المهدي فوق رأسه وقبل يديه ورحليه»

ثم قال إن العُصاب وخص من دمشق إلى الرملة يصف له المهدي ويأمره بالبحث عنه والمهدي في داره فابك الرجل على رحلي المهدي يقبلهما ويبكي نطمأئنه المهدي قائلا «طب نفسا وفرعيتنا، فوالذي نفسي بيده لا وصلوا إلى أبدا، ولنملكنا أنا وولدي نوهي^(١) بني العباس».

وثبت غير مرة أن النحابين الإسماعيليين كانوا أسرع إلى تبليغ المهدي وأعوانه من السجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالحزاء الحريل على اعتقاله وتسليمه واستخدم الحمام الراح في تبليغ الرسائل إلى المهدي وهو في طريقه كما جاء في روايات مختلفة، فإن صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وإيمان برسالة المهدي على طول طريقه من الشام إلى المغرب، وإن لم يصح فقد صح ما هو أعرب منه وهو نحة المهدي من عشرات الولاة وأعمال في الشام ومصر والمغرب، بل نحاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره إلى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقر في باب الحب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية لا تعترف لحلفاء بعدد من بني العباس بغير الدعاء على المسير في يوم الجمعة، فقد روى عن كامرر الإخشيدى أن الشريف أبا حمير مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه وقد سقط منه فاستعظم كامرر هذا التواضع منه زمان على يده يقبلها وهو يقول «سعت إني نفسي، بعد أن ناولني ولد رسول الله ﷺ سوطي غاية يتشرف له».

(١) مواصى جمع ماصية، وهي محبة الشعر في مقدمة الرأس

هذه هي أشراط الساعة وعلامات الرماى التى واعتها دعوة الدعاة العاطميين على قدر، ولو لم تقتصر دعوة الدعاة بهذه الأشراط التى تحمعت من فع الحوادث التاريخية وابواع النفسية لما نمك الدعاة وحدهم من إقامة الدولة ولا تمكوا من الإقناع وهو أهم أعمال الدعاة

* * *

ويتابع الأمر إلى عايته فنقول إن لدعوة والحوادث التاريخية والواعث النبوية كلها كانت خيفة أن تذهب سدى بعير بتسحة لو لم يقيص للدولة بناء وموطدون من أصحاب السطان فيها، يأخذون برسام الأمور ويحسون قيادتها على نهجها القويم إلى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الحديدية لعواشى الزمن، وهى بعد التأسيس عرضة لطوارئ الهدم والتوهين

وقد جرب العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولم يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناء أو مسترسين أو هدامين ينقصون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة العاطميين شديدة من هذه القاعدة، فأسسها المهدي عبيد الله ووطدها المعز لدين الله، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودراعى الزمن درى أن يتاح للدولة هذان البايان لما برر لها من الأرض ذكر ولا أساس

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمات والهيئة كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الحاش، وعرف بالحزم وأصالة لرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعباد، واجتمع له حسن التصريف، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسساً قليل النظراء

قيل فى قوة بنيته «أنه كان بقوة عشرة رجال».

ولمست هذه القوة سائرة فى أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه حاد لأرض بمصارع الروم لدى حاء إلى دمشق

يتحدى الأقوياء في بلاد المسلمين كما تحداهم في بلاده ولم تر هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس، فقيس عن يحيى بن عمر الملقب بالشهد أنه «كان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمة فيلوي العمود في عنقه فلا يفدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده»

وليست قوة انبعية شرطا في أصحاب العروش، ولكن مؤسس الدولة يحتاج إليها إذا وحيث عليه الرحمة أحيانا من مكان إلى مكان فحاه وعلى غير استعداد ووجب عليه أن يصبر على مناع الاستخفاء ومتاع الحاجة، وأن يصرع المطارء ويسبق المتعقب ويجرز للقتال ولا يزال على أهبة لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المشفقين عنه، فإذا تصدى لهذا ولم يرزق صلاحة الأركان أو شك أن يقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة في مرقه وفي أيام سلطانه، وأسعفته مع مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يصمر مودته، فلما كان أسيرا في المغرب الأقصى كان صاحب «سحلماسة» يكل بأعوانه ولا يجسر على محابته بما يسوءه، وكان يعمل في مغيبه ما لم يكن يحترئ على عمله وهو ناظر إليه

وقد تمت به المسعفات في مارق لحرص باليقظة الحريئة ولحيلة اتى لاتفارقها رباطة الحاش وعزة الكرامة فلما خرج من الشام إلى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الأدلاء إلى كل بلد في الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرثون الدمة ممن يراه ولا يدل عليه، ويحفلون لمن يسمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء. واتفق أنه صلى الصبح يوما في جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو بهم بالخروج من المسجد وضرب بيده على كم الإمام وقال له «قد حصلت لي عشرة آلاف دينار»

* * *

ولو رحل غيره في مثل ذلك الموقف العصيب لسخت به الأرض من الغزع، ولكنه ابتغت إلى لرحل غير مكترث وسأله كأنه خلوا ذهن من كل خبر وكيف ذلك؟ قل، لأنك أنت الرجل المطبوب مصحك المهدي وعاء مع الرجل إلى المسجد وهو يقول له «عليك عهد الله وعليل ميثاقه أني إذا جمعت بينك وبين

الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة الاف دينار « ولعله تفرس في الرجل الغفلة فأخذه إلى حلقة قد اجتمع الناس فيه، وأدخله من حابها وراغ منه وجمع النية في تلك اللحظة على هراق مصر والمبادرة بالمسير إلى المغرب.

وفي مسيره إلى المغرب تعقبه وإلى مصر وأدركه ونرد في وصفه فأطلقه، ولاح عليه أنه يحدث نفسه بلحاهه إذا تثبت من حقيقته فما عثم المهدي أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصند متعلق به ابه . وكانت تربيته لابه كما تقول في مصطلح هذه الأيام تربية رياضية - فوق في نفس الوالي أن رجلا يعود بعد المحاة في طلب كلب لا يظن به أنه خائف على حياته وأنه خارج في طلب الخلافة ومار لأصحابه «فبحكم الله أرسى أن تحلوسى على قتل هذا حتى اخذه هو كان يطلب ما يقال، أو كان مريباً، لكن يطوى المراحل وسخفى نفسه، ولا كان رجع في طلب كلب ..»

وقد يكون الوالي أطلقه لما أخذ منه كما يقول عريب بن سعد في تاريخه، وأنه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره إلى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه باسمه وركبه، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتصليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالي إلى بغداد

ومن حرمه بعد مبايعته بالخلافة أنه سار على الأثر إلى تحديد نظام الدعوة في المغرب وفي مصر واليمن والعراق وخراسان، وحمله على هذا التحديد أن أمر الدعوة لم يكن محتتم في يديه أيام استتاره فسوى الدعاة بدب أعوانهم بغير مراعاة المهدي في اختيارهم، وتعود هؤلاء الأعوان أن يسلقوا أوامرهم من الدعاة الذين مذبوهم واختاروهم، ولم تكن عاصمة هذا النظام مأمومة على الخليفة الحديد ولا على الخلافة الناشئة، فيه حليق أن يجعله عالية على أتباعه وأن يطمع هؤلاء في الاستبداد به وعصيان حكمه فنقص نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم داعي اليمن ابن حوشب - معزله وهو الذي كان أستاذ دعائه في الأقاليم، وكان منهم عيد الله الشيعي الذي سبق المهدي إلى المغرب واستقدمه إليها بعد التمهيد له وجمع القبائل على عهده وقد رابه من الشيعي هذا وأخيه

العباس أنهم على اتصال خفى برعماء القبائل وأنهما يستكثران على الخيفة أن يحصر السلطان في يديه، ونهى إليه أنهما يأمران به ويبعثان الدبة مع رعماء القبائل على قتله، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون، فجعل يفرهم في المناصب النائية كأبه بكافهم ويعتمد عليهم، وهم في الواقع يعصونهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمناغسة

* * *

وأطلق دعائه لحدود ومن أبقي عليه من الأقدمين بجوسون خلال السنين الإسلامية ليبشروا به ويخدلو الأنصار حول أعدائه فإطلق رسله إلى بلاد الأمويين بالأندلس وبلاد الأدارسة بالمغرب، وبشطر رسة في مصر واليمن والعراق وخراسان وأخذ بيديه أزمة الثورات في كل إقليم من تلك الأقاليم فاستمهل أعوانه كلما تمحلوا الثورة وظنوا أنهم قدرون عليها وأن الأوان قد آن للحزم بها، ورأى هو بثقاب نظره أن ثورة الأطراف قبل فتح مصر، أو قبل المسير إليها، تعريض بالثوار، وأن الثورة بعد فتح مصر تنمة متفجرة قد تأتي عموا وقد تشب دفعة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية، فلا يعيى الثوار بالخروج عليها في غير حذر ولا دم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتحربة الموقف مرتين

وإراح من المفاصلة بين برامج المهدي أنه كان مقصور اليد في حملاته على مصر كان يرضى بالأثمة وانتزعت حتى بفرع العمل في التحديد وكسب الأنصار ثم بصرب انقصر صربة من صرباته التي تأتي على غير انتظار فبموت خليفة بغداد ويستسلم لشقاق بين قواده ووزرائه ويغتم انثائرون العريضة قبل تمام الأهبة، وتتوارب الكتب إلى المهدي بالحرص على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر إلى هذه الأحداث من بعيد، ولا يبيع من ثقته بحدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خرواً من الحد طمعة للمغيرين عليه وامتقضي من بايعوه على دخل في أول عهده، فبعث إلى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار، كالحملة التي عقد لراءها بلرعيم البربري حباسة ثم حمته تبعة الإخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل إلى الإسكندرية

* * *

أما الخطة التي يبدو أنه كان يؤثرها وبخيارها فهي إرجاء الحملة على مصر إلى أن يفرغ من شأن المغرب ويقصى على فتحه ومث غبته، وبيتني فيه المدينة لتي أرمع أن يتحدها حصن له يحتنى به من المعيرين والمنتقصين، وقد شعلته فتى المغرب رميا وأحرقته أيما إحراج بعد مؤامرة عبدالله الشيعي وأخيه فقمع الفتنة قمعا عديفاً لا رحمة فيه ولم يسكن إلى مقره بالمغرب إلا بعد الفرع من بدء المهديّة حولى سعة خمس بعد ثلاثمائة، فقال يومئذ: «لقد أمنت الآن على العاطميات»

ولم تفارقه طبيعة الحيطة واسهء فى سبئه للمهديّة، هانتقى لها موقعا يحيط به البحر من جهات ثلاث، وأقام عليها سورا من العرب له بابان من الحديد ربة الواحد منهما ألف فنطار وبنى فيها الصهاريج وأخرى فيها القنوات وجعل للمؤر أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور، وانتحى حابا ثم بنى على مقربة من المهديّة مدينة أخرى سماها باسم رويلة إحدى قبائل البربر التي تواليه، وخصص رويلة لذكاكير التحار ومحاربهم تخفيها عن المهديّة وعزلا بين السكان ومراققهم، وأقصى إلى خاصته بأنه إنما فعل ذلك لتأمن غائلهم قال: «إن أموالهم عندي وأمالهم هناك فإن أرادوى بكيد وهم برويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك، وإن أرادوى بكيد وهم بالمهديّة حاقوا على حرمهم هناك، وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا»

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لراءها لولى عهده القائم هذخ الإسكدرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم إلى الحيزة واحتل الفيوم ثم هم الوء حيشه وفتك بالألوف من حنده وحين بنه وبين المدد من المغرب بعد بهرام أسطوله، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو فى وهن الشيخوخة، وقيل إنه مات قبل أن يحكم تدبيرها، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كىم خبر وفاته سنة كاملة، محافه الانتفاص ممن أدبوا بلحكم الحديد مهانة للمهدى ورهبة من بقمته.

* * *

مات بمهدى في سنة (٢٢٢ للهجرة) وولد في تاريخ مختلف عليه بين سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وتوقع له بالخلقة وهو في نحو الأربعين، فكانت مدة حكمه أربعاً وعشرين سنة، ترك «دولة بعده» وقد استقر ببلادها ورسخت ركائزها ودانت لها الدور التي كانت تدارع في المغرب وصقلية من لأعالية والأدارة ومن يؤازرهم من الأمويين بالأسد والعباسيين ببغداد، ولم يعرف عنه طول أيامه بالمغرب حاكماً أو غير حاكم أنه خرج لمبعم نفسه أو عقل يوماً عن سياسة ملكه، وكانت له راحة واحدة وانقضت حياته وفي سيرته رب ببسان الحار لا ببسان المقال على الدين رموه بالانتماء إلى أعداء «دين»، بن أعداء الأدين وأنه تواصاً سرّاً مع رس الفساد والعوايه لاستباحة لمحرّمات والإعراء بالفحر ولو لم يكن كذلك لم أبقى بعده ملكاً مؤسساً بعالف عوايه الدهر من أول القرن الرابع إلى نهاية القرن السادس، أو يعالها بأثارة الباقية إلى اليوم



المعز لدين الله



واحتاج لدولة إلى انتويد بعد التأسيس فقم بالقسط لأوفى من هذه المهمة ابن حفيده بملقب بالمعز لدين الله، وهو الحليفة الذي فتحت مصر وببيت القاهرة في عهده وبقر مقر الملك إنيها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاه حده الكبير، وقبر إنيها كانت بيوة مصر يحسبون لأوقات في مراحل لباربع بالأربعين تولى الملك بعد المهدى ابنه «الفنم يأمر الله» ثم المصور بأمر الله وكلاهما حدير بأمانة ميراثه وإن لم يبدع من العظمة مسمع المؤسس من قبله أو مبلغ انموط من بعده فعزز لفنم الأسطول واحتل الشواطئ الإيطالية حتى تعر حدود حماية لبلده من عاره القراصنة، ومات قبر انمكن من صد الخورج الدين أطمعهم بيه موت أبنه، ولولا اعتصامه بالمهدية لداب الدولة كلها في عشرة أعوام وارتقى ابنه المصور إلى العرش فاحتاج الخوارج أمامه وأسر زعمهم انقوى ابن كنداد وشتب حموعه ثم تردد بين صد الأمويين الدين أعاروا على مراكش في هذه الأثناء وبين صد لإفرنج الدين خيف منهم على شواطئه، فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف رجعهم ولا يحلى الطريق أمام أحدهم ومات محهد، في سن (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرس ابنه «معد أبو تميم» المعز لدين الله لدى كن بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

* * *

قلنا في كتاب «عقربة خالد» إن ولاية أبي عبيدة على الشام كانت لازمة معد ولاية خالد لأن الدول تحتاج معد دور الفتح إلى عصى الترياق مع اسف» وقد كان هذا شأن المعز في المغرب بعد حده فإنه كان يحس المحاملة إلى جانب البأس والصرامة، وكانت مشأته بشأة علم وفروسية أو بشأه عليه بالبرهان وعلبة بالسيف والصولجار

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة ولمهدية محصوره، فكان يملقى دروس افروسية علما وعملا ولم يفرع من مراجعة الطروس

والاسفر، وتعم لغات الأمم التي تبصر بالخلافه لفاطمية حمبعا، فكان يحس
البربرية والرومية والإيطالية والديونية، ويتوسع في علوم العربية، وكان له شعر
ريثيميل فيهما إلى المحسبات لايتشارها على الأنسة و لا قلام في تلك الأيام
ويروى عن أنفته من احهر أنه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها
واعتقد أنها كلمة سيم ومهارة فحفظها ونفد ان يسأل عن معناها ولم بدرج حتى
أنقر علم تلك اللهجة فبدأ بالكلمة من أردن شنائمها، وقد أنف من حهلها فأصبح
يأنف من أن يواحه أحد بمثلها

وبويع له بالخلافة وهو في الرابعة والعشرين، مهمه أول الأمر أن يستوثق من
مسع المعامل التي يعتمد بها الخرحون على لدولة، فصعد إلى حبل أوراس ومنه
من القباث من لم يكر قد سحل في صاعة آبانه فبايعوه، وأسرع إليه المخالفون
يتقربون إليه لما أنسوه من مودته وكرمه

وأظهر ما ظهر من خصال المعر التي يتصف بها بناة ادول أنه كان حريص
على الانتفاع بالمحارب والعبر، وأنه كان يحسن اصطباع الرحان، وأنه كان
يحيد العراسة في أحوال الأمم واغتنام الفرصه من بينها لما يترقبه ويعقد
لعزيمة عليه.

فلم ينس هزيمة الأسطول في الحملة على مصر ولم يرب حتى أنس على
شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أسطيل الروم عن بلاده وعن حرر البحر
الخاصه لحكمه ثم حدد حفر الآبار في الطريق إلى مصر ليأمن قطع الراء واماء
عن جيشه

ومن اصطباعه للرجال أنه كان يستحب الخدام والأعوان ولا يعار من
تعظيمهم يبر يديه، من يأمر الشعراء أن ينظموا انقصائد في مدحهم ويأذن لهم
أن يخاصبوهم بها في حضرته وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر
الصفلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه، ولما تم لحوهر فتح
مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى الوكيل جوهر،
عند تبليغ بشارة الفتح إلى المعر فلم يبدأ بإبلاغها إلى رئيسه «المياشر»
لمبلعها من حاسبه إلى الخليفة، فغضب المعز على جعفر بن فلاح ورد إليه كتبه
ليعيدها من طريق جوهر إليه

ومن اصطباعه للرجال أنه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع في نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتحرية بعد التجربة حتى يمحضوه اطاعة خالصة بغير رغبة، ومن المشهور عنه أنه كان إذا نقي أحداً من مخالفه تركه يحصرف وهو يحسبه من حربه ورأيه، ولعل هذا كان سبب الإشاعة التي تواترت بين الرهبان والقسوس يقتصره وبقائه على البصرانية، فإن الخبر الذي جاء في كتاب «الخريدة»^(١) الكنيسة في تاريخ الكنيسة: لأحد الرهبان يقول إنه اعترف الملك وترهب ومات قدس في مقبرة أبي سيفين ويقال في سر ذلك إنه تصدى البطرك إبراهيم أن يرحل الحبر من زحزحه على ملا من لأمراء والكبراء وقادة الحند ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يعنى عن هذه لإشاعات، فإن الخليفة المعز أمر قائده حوهر ألا يتعرض لمخالف في الدين ولا في المذهب بما يعطى شعائر دينه أو مذهبه، وأطاع حوهر مولا، فبنى الدير الذي عرف بدير الخندق بدلاً من الدير الذي أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبيد القاهرة، وجاء اسمع فحدد كل ما يهدم من لصومع وبيع^(٢) وحدث كنيسة «مركوريوس» التي تسمى بكنيسة أبي سيفين (لأن لقدس كان يرسم على صهوة حواد وهي يديه سبقتان) وقيل إنه أمر بإقامة البناء على المحذوب الذي أثار الدهماء استنكاراً لبسائها وألى ليبقيين في حفرة الأساس حتى يقام عليه، فلم ينفذ من مصيره إلا شفاعاة البصرق له عند الخليفة

فهذا وما جبر عليه المعز من المجاملة وما تعودته من الترحيب في مجلسه بالمتناظرين في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الإشاعة عن مدفيه في مقبرة الكنيسة، ولعلها إشاعة نيتت بعد عصر المعز بعدة سنين يوم كانت هذه الإشاعة وما إليها مؤثلاً العزاء في أيام الخليفة الحاكم المحيول، لمن كان يصطهدهم من المخالفين وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسيين

* * *

ومن تعرضه في اصطلاح أحوال الأمم واعتنام العرص أنه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر وبشر فيها العيون والدعاة، وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه، وتلاحقت الأنبياء بسوء الحال وشتداد الغلاء وهناك

(١) الخريدة: المرأة الحوية الطويلة السكوب، والعذراء

(٢) البيع جمع بهمة بكسر الباء كنيسة المسيحيين

الولاء، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الاخلاق بين ولاية الأمر
ومنه فى رواية المقريرى أن صبية عرضت فى مصر للبيع وطلب فيها البائع أنف
ديبر «فحضر إليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية
فساومنه فيها وابتاعها منه بستمائة دينار فبدأ هى ابنة الإخشيد محمد بن طعج
وقد بلغها خبر هذه الصبية فلما رأتها شعفتها حبا فاشتريتها لتستمتع بها»

قال المقريرى «فعاد الوكيل إلى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر
الوكيل فعصّ عليهم خبر ابنة الإخشيد مع الصبية إلى آخره فقال امعر يا إخواننا
انهضوا لمصر فلن يحوز بيكم وبينها شيء، فإن لقوم قد بلغ بهم الترف إلى أن
صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى حارية تنتمتع بها، وما
هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب عيثرتهم، فانهضوا لمسيرنا إليهم»

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعبه
عليها، ولكن لمعر على خلاف امعهود من سياسة أسرته خطر الاحتفال
بالسوروز بعد وصوله إلى مصر مبعدا للتسلل لدى شاع فيه على آخر أيام
الإخشيديين، وتطهيراً بالأخلاق مما صابها فى تلك الأيام وأدرك منه امعر أنه
يدير برؤال ملك بنى الإخشيد

وعدم حوهر إلى مصر فى سنة (٣٥٨ بهجرة) فاشتراط عليه وحوه الأمة
ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم، فكتب لهم عهد
أمانه الذى قال فيه «ذكرتم وحوها انتمستم ذكرها فى كتاب أمانكم، وذكرتها
حابة لكم وتصميها لأنفكسم، هم بكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة، إذ
كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهى إمامتكم على مذهبكم وأن تتركوا
على ما كنتم عليه من أداء المقروض فى العلم والاحتتماع عيه فى حوامكم
ومساحدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله
عنه والتابعين بعدهم ولكم على أمان الله المام العام الدائم المتصر الشامل
الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام»

ووضع جوهر أساس القاهرة، ولم يشأ المؤرخون أن يحسوا شهره الفاطميين
برصد السحوم - وهى شهرة صحبة - فقاوا إنها سميت بالقاهرة، لأن
لمهندسين أقاموا على أسسها جبالا وعلفوا فى الحبس أحراسا ليسمعها العمال

عند حلول الرصد المطلوب، ريز عراب وقع على الحبال والمريخ في الفلك فهترت
الحبال وأخذ العمال في وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهرة الذي يطلقه
المنحصر على المريخ لأنه كان في معتقد الأولين له الحروب.

* * *

هذه القصة «أولا» تروى عن بناء الإسكندرية

وهي «ثانيا» لا تفعل، لأن النجوم ترصد ليلاً والعربان لا تصير بالليل، ولو
طارت ليلاً أو نهاراً لما كانت وقعة عراب على حبل كافية لدق الأحراس على
جميع الأسوار، ولو كانت لأحراس تدق بهذه السهولة لدقت قيس وقوع العراب على
الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة العراب، ولو كان تحقيق
الرصد منب على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التسبب في ساعة معلومة
بغير حاجة إلى الأحراس

ثم من قال إنه غراب وهو مجهول؟ وكيف عرفوه، واسطون أن المهندسين هم
الذين حركوا الحبال؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو حملة من الطير؟

وقد رويت القصة وتماثلها المؤرخون وتقيبها كثيرون، وفي التنبية إلى ما
مها من الإحالة^(١) عبره من يصسق السمعة التي تخفيها الأقاويل من هذه القصة
واتبع جوهر سة دولته في تخطيط المدن وشييد لعماثر، فبهم تعود أن
يبدأوا بتحديد المعالم والشارات يستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالبطر والسمع
شيئاً شيناً قبل مطالبتهم بتغير ما توارثوه وثبتوا عليه، فشرع جوهر في بناء
مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ لهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء
في أرحح الأقوال، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن
القطائع عاصمة الصولوبيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن صوبون وعن
الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق، وكتباهما - أي القطائع
والفسطاط - كانت عاصمة بلقصر في أوائلها، وأستحدث الأمراء بعد خرب القطائع
عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلاً
ومقاماً كدأبهم في تحديد المعالم والشارات على ما ألمع إليه

* * *

(١) الإحالة آجال الرجل أتى بهامال وتكلم به

وبعد فر ع حوهر من بناء العصور انى أعدت لإقامة الحلفاء أبلغ المعز فقدم إلى الإسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وحلّس لاستقبال رؤساء المدينة ولواقدس إليها للسلام عليه ثم خصهم قائلًا إنه لم يقصد إلى مصر طمعاً على زيادة ملك أو مال وإنما قصد إليها لتأمين الأفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الإسلام، وهو كلام بقول مثله كل فاتح ولكبه كان في درناصج لمعر خطة تمليها لضرورة عليه، لأن تأمين الطريق إلى الحجار كان صواب لاستقرار أسوة العاصمة ودفع الشبهات عنها إذ كان لفرامضة يعملون باسمها وكبر أعداء الدعوة انعطافية يشيعون عن القوم أنهم يقطعون صريق الحج عملاً بمذهب الإسماعيليين ويرعمون أن لإسماعيليين يسقطون لحج من الفرائض، فكان تأمين طريق لحجار من قبل مصر والشام خطة تقصى بها مصلحة الحاكم وابعهكم، وم يلبث المعز في القاهرة سه واحدة حتى تفاقم خطب اسراع بيه وبين لفرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عنه ورحلت حموعهم إلى مصر ومعها فباتن البادية التي تطلب العنمة وبخشي من عوافب تأمين الطريق، فاسعد لهم المعز بعده الحية حقب للدماء وأرسل إلى رعيم انقبس البدوية حسان بن الحراج انطنى من يطمعه بالمال، دا تراجع ونحى عن أصحابه، ووعد بمائة ألف دينار فقبس الصفقة، وخرج المعز ليقابل على اتفاق بيه وبير ابن لحراج أن يهرم هذا بجموعة عبد النقاء الحشوف، وقد عمل وحسن معه أكياس الدناير ولكنها لم نحو من لدناير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع نحاس المدهمة يخفيها الزعيم المخدوع جميعاً عن شركائه، ودارب الدائرة على انفرامطة في ذلك اليوم فقمعوا من العيمة بالإياب ودبت المخدوف والشكوك بينهم وبير أصحابهم فلم يرجعوا بعده إلى عاراتهم على مصر

ولم يسه عهد البوطيد بانتهاء عهد المعز (في سنة ٣٦٥ للهجرة) فإن بيه العرير الذي تولى الملك بعده كان من كفة الملوك وكانت طاعته عالية على المغرب ومصر وحزيرة العرب لا تخرج عليه خارحة مياها إلا عجل بقمعه وأعاد الأمور في أرحاء الدولة إلى مصابيح، ولكنه مات (سنة ٣٨٦) وقد بدأت في أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم، وتناثرت هيا وهياك بذور الانحلال التي لختفت إلى حين في إبان بضرة الدولة وزهوف، ثم برزت وتفرغت مع إديار الأمور وتعاقب الصعفاء من الأمراء

الحاكم بأمر الله

فإن بعد العرير عبي سرير مصر أسطورة في شخص إنسان، لو لم يكن تاريخه خبراً يقيماً لشك فيه المؤرخون أن حرموا بذكره، إذ كان مجموعة من البقائص والعرائف يكذب بعضها بعضاً ولا يتصور العقل لأول وهلة أنها تصدر من إنسان واحد.

ذلك هو الحاكم بأمر الله.

كان يعمر وبخرب، وكاز يلبي ويقسو، وكان ينهي عن المراسم ثم يعرض منها ما يشبه العبدية، وكان يحيز شعائر أهل السنة وأهل السنة ثم يصعها ويبطش بمن يعسها. وكان يحرم المباح ويبيح الكفر ابواح، وكان يبدل الليل بالنهار والليل بالليل، فمن فتح دكايا بالنهار حله ومن أعلق دكايا بالليل رماه بالعصيان، وكان يعتق العبيد والإماء ويفرق عليهم الهبات والأوراق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يألف منه الأرفاء، كان يخرج إلى عيران الجبل في الظلام ويختبئ في حشرات قصره ضد مشرق الشمس إلى المغرب، وكان يدعى علم العيب ويعاقب من بحرس ماله ومناعه كأنه يشك فيه، ثم بحاسب على الصغائر التي يعرفها المعتبطون.

قال ابن خلدون «إن حاله كان مضطرباً في الحور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة» وقال ابن خلكان «إنه كان جواباً سمحاً، خبيثاً مكرراً، رديء الاعتقاد، سفاكاً بالدماء قتل عدداً من كبراء دولته صبراً، وكان عقيب السيرة يخضع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها.»

ولم يذكر عن ملك في أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاكم بأمر الله، وبأمره، وبأمر المأمورين والأمراء.

فمن مؤرخي القبط من يقول أنه مات على انصرانية ومنهم من يقول إنه كان يعبد المريخ ويتوهم أنه يراه ويتحدث إليه، ومن مؤرخي السنة من يقول إنه ادعى الربوبية، ومن أتباعه اليوم من ينفي الموت عنه ويرغم أنه صعد إلى السماء ليعود إلى الأرض في آخر الزمان، وأطيفت البقائص على تاريخ حياته بتاريخ وفاته، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات.

وهي رائيا بعد هذا ان سيرة احاكم هي اعجب اسير واوضح السر في وقت واحد.

هي أعجبها هي موارير انصوص والأوراق، وهي أقلها عجباً في مبرر علم النفس الذي لم يفصل عن التاريخ قط في الكلام عن ربه كما انفصل عنه في الكلام على ملوك هذه الدولة

واصبح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل أنها حالة من حالات الهوس بالأسرار أو الحلاب التي تعرف بهوس العموس *Mystic Hallucinos*

وأصحاب هذه الحالة مستعمصون موعود بالأسرار، يفرطون في التفاؤل والنشائم لإيمانهم بالرموز واعتقادهم أن العيب يتحدث إليهم عن مكروباته بتلميحات من الحوادث والمعاني المربوطة التي تحمى في أصواتها ما يتم عليه ظاهرها للعارفين، وإذا علا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التي تحتلظ بمرض الاضطهاد، فيقع في روع المريض أن الناس يصرون له الشر ويتعقبهم بالتحسس والاستطلاع، ويستقم منهم بلوهم العارض والشبهة الكاذبة لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح

ويسكن المنهوسون بالأسرار إلى مياطر ابطالام، ويسهويهم النيل بخفاياها، وترونها الوحدة في الخوات.

وليس المصاب بهذه حالة مجنوناً داهل لحس عما حوله في جميع الأوقات، بل هي نوبات تعترية ولا تمنعه أن يبدع إبداع العباقرة والموهوبين في بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم إلى صدمات الطفولة وأزماتها التي ترتبط بالحس على الخصوص، فتكمن في الوعي الباطن وتتمكن منه على غير علم من صاحبها، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويداً رويداً في مقتبس الشبّاب

وعير «الفرويديين» يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر، فيتوهم المريض أنه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعه، ويحدث أحياناً أن ينظر إلى شيء الماثق فلا يراه ويصعق إلى الصوت البين فلا

Mystic Hallucinos. (٦)

يسمعه، وقد تنفعون مع حماه فرود في رجوع بالعة إلى صدمات الطفولة
وأزماتها دون أن يريضاها بالمشائس الحسية

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحكم من شتى المصادر، ولم يكن
الحاكم بمعزل عن البيئة التي تنحدر فيها الآفات إلى نفس الطفل الباشي، فقد نشأ
الحكم كما أسلفنا في عهد دسائس القصور وسياسة الحريم وتركه أبوه وهو في
الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برحواو
والقاضي محمد بن النعمان وأحسن بن عمار رعين قتات البربر من كتامة، وأول
هؤلاء برحواو كان غار في دسائس القصور وسياسة الحريم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحكم وهو في سن الخطر، لأنه لم يكن من
الطفولة بحيث يحفل ما حوله، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به
ويمك الرسائل إلى استطلاع ما كان في الحادية عشرة وكانت كل خفة من
خفا الدسائس تعريه بالنطلع وتوسوس له بالرسنة والتساؤل فإن كان مع
هـ قد نشأ في بيئة التبعيم وكبر وهو يصغي إلى أحاديث الداطن والظاهر
وأسرار العيوب التي تنكشف للواصلين من الأئمة، فلا عجب في ابتلائه بتلك
الآفة، أمة الهوس بالأسرار أو ابولع بوساوس العموص، ثم بحهر على بغية
الباقية من عقله أولئك الورراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف في
نفوس الأمراء الباشين فيصعبون في استغلالها ويبالعون في تحسينها
وترتيبها، كما فعل الدرزي والأخرم من حاشية الحاكم المقربين، إذ قيل إنهم
وسوسوا به بمذهب الحلول وخاطبوه محاطية الأرباب، وأطبقت أمة الإطلاع
لمصل على أمة الاستطلاع المكبوت.

ويم يكن الحاكم من لمسرفين في الشهوات فتحت أعصابه من قبل الإسراف
ولم يكن يعاقر الحمر أو يستطيبها من كان يحرمها وينهى عنها، ولم يشرب
الببب إلا بالبحاج طبيبه الذي خطر له أن يعالجه برخال السرور إلى نفسه في
محال السعاء مع يسير من الشراب، وإنما «عرض له كما قال الطبيب يحيى
لأنطاكي في تاريخه تشبب من سوء مزاج يابس في دماغه، وهو مزاج المرضي
الذي يحدث في المالحوليات، واحتج في مساواته منه إلى جلوسه في دهن
البفسج وترطبه به، ون كثرة سهره بضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمن

الدائم مما يقتضيه هذا السوء «متقدم ذكره، وإن أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أنسطاس لم يخدمه استماله إلى أن تسامح في شرب الببذ وسماع الأغاني بعد حرره لها ومنع الكافة منها، وبصلحت أخلاقه وبرط مجامع دماغه واستقام أمر جسمه، ولما مات أبو يعقوب وعاد إلى الامساع عن شرب الببذ ومن سماع العناء رجع إلى ما كان عليه».

تلك هي خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس، ولا يصور لنا فيها شيئاً من تلك الأعاصير التي يستعربها مؤرخو القصور والأوراق، فإن طعنا بصواب بالتشريح وتحيط به في سن المراهقة دسائس القصور التي تحيط بالموت الصغير، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن السحيم وأسرار الباطن والعيوب، ثم يبتلى من حوله بالمتريين والمنقبين عن مواطن الصعف في نفسه الحائرة - غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك القنائن التي يساق فيها على الرغم منه أو التي يساق فيها محاراً لأنه متوهم أنه يروى نفسه بالكشف والبهجد، وحمل الناس عليها والقرب إلى الله بعقاب من يحرف عنها، فتتكشف له الحجب التي لا تراه مسألة دونه، ويتمهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص في الرياضة وقصور في العبادة، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليأس وقبح الحائر وإسناد المستريح إلى الظنون ودعوى المصدق لما يلقي عليه مما يستريح إليه

وسواء صبح أن بكبة الحاكم كانت إحدى حرائر «الحريم» ودسائس القصور أو كانت بكبة حبرة المرص وحده فقد صدق فراسة المعر في عاقبة التكثر من الروجاء والحواري وأخذت سياسة القصور تنسج وتشتري^(١) حتى تناولت كل شيء في الدولة والمجتمع، وكانت جرئها آخر الأمر شرا قائما بدقه وشرا محسوباً عليه سائر الشرور، لأنه كان حائلاً دون اتقانها ومنعها كما كان حائلاً دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشحرت^(٢) بينها نوارع الشقاق تبعاً لاختلاف الأحزاب في كل حريم، فكن للدولة قوة من الترك وقوة من

(١) نهج القيام في قيس نضلاء

(٢) تشتري. تشدد

(٣) شحرت تشابكت

السودان إلى جانب القوة التي كانت لها من الدبر والعرب، وأصبح حراس الأمن
أول لمرعحين للامنين ولأنفسهم وللنفادة والحكام

ولم يمض غير حيل واحد على قيام الدولة في مصر حتى ابتليت بسياسة
«البيروقراطية» أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم.

وسيد هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء في سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين
كالأطفال وإن بلغوا مبلغ الرجال، فقد ركبوا إلى برف انفصود وقبعوا من الزرراء
بجلب المال إليهم كلما طلبوه، فقبض الحباة ورؤساء الدواوين والوزراء على
أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم وبسببتهم فاستباحوا
المصادرة وجمع الإتاوات من الرشوة والإرهاب عدا ما يجمعون من الضرائب
في غير موعد

والمصائب لا تأتي فرادي كما يقال، فإن المجاعة من الداخل وهجوم
الصلبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصاب الدولة بعمر فوق عمر حتى
تعذر عليها التماسك والدفاع، فحق عليها القول

وقد سمي عصر الحيفة «المستنصر» بالعصر الذهبي في الدولة الفاطمية
مع ما كان ينخبه من القحط والمجاعة والوباء، وما سمي عصره بهذا الاسم
لأنه صنع فيه شيئا خلال ستين سنة قصاها على العرش منذ جلس عليه وهو
في السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) إلى أن مات وهو يدلف^(١) إلى السبعين، ولكنه
كان عصرا كموسم الحصاد الذي يبرر فيه الثمرات والأشواك ونصيح فيه
السدبل وما يحملها من الهشم الذي ستدروه لرياح عما قريب أو تطعمه لبار
بات الوقود

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من انبياة ولا من الهادمين،
وإنم هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك، وقد يفارقها وهو فتيل.

وكان يسوأيوب قد أخذوا بزمم السلطان في مصر قبيل انتهاء الدولة
لفاطمية، فلما استقر الرأي في أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسي
بدلا من الخليفة الفاطمي الملقب بالعاقد، تحاوت المنابر بالدعاء الحديد ولم

(١) يدلف دلف الشيخ: سنى وقارب المطر

يعلم به الخليفة الذي تحول عنه الدعاء؛ لأنه كان يحود بنفسه في مرض الوفاة، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هي خاتمة الأجلين أجل الخليفة الذي عمر إحدى وعشرين سنة، وأجل الدولة التي عمرت بين المغرب ومصر مائتي سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب، وقال المقرئ من صلاح الدين والخليفة الأخير «وأضعف العاصد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره في أردباء وأمر العاصد في نقصان وبيع العاصد من التصرف حتى تبين للناس ما يريد من إرالة الدولة فلم يبق للعاصد سوى إقامة ذكره في الخطبة هد وصلاح الدين موالى الطلب منه كل يوم ليضعفه، فأتى على إيمان والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاصد غير فرس واحد فطلبه منه وألحاه إلى إرساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر.»

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين؛ لأنها من قسوة الرمن وحماية الأسلاف على الأخلاق، أو هو قد حسبها في حساب الموارسة بين المناقب والمعائب، وبين حكم المروءة وحكم السباسة المشبوهة^(١)، وبين القصاء لدى بحريه صاحبه، والقصاء لدى بحري على قاصبه فيجريه وكأنه يعاقبه، فحدثت كفة الإقبال وهو ثم الرحار ودبت دولة الزوال فشلت^(٢) كفتها في ميزان الزمان

* * *

(١) المشبوهة المكروه

(٢) فشلت كفتها شال المعبران، ارتفعت إحدى كفتيه على الأخرى.



حصارة متحضرة

إذا استثنينا الحصارات المصرية الأولى في أيام الفرعنة حار أن يقال إن حصارة مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها بطير بعد الملل، ولا استثناء لعهد لبالس، لأنه عهد عبت فيه الصبغة الأحببة على الصبغة البوطية، خلافا للحصارة في أيام الفاطميين، فإن صبغها المصرية كانت عليه على كل صبغة، ومن ثم لم تتكرر في وطن آخر على هذه الصورة وبقيت مصر على مذهبها الذي الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها

ربصدق كلمة الحصاره هنا على كره حصارة نفس بمقياس النفاذ أو مقياس الصبغة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية

للم نوحده في مكتبه بعد مكتبة الإسكندرية حرائر للمكتب كاخترن لتي وحدث في العصر الشرقي وتعاوت تقديرهم بين ستمائة ألف محلد ومليونيين، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للإعارة أو الاطلاع

وتنافس العصور في اقتناء الكتب النادرة، فكان في كل عصر مكتبة تحصى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم

وكان بضيعة يرور المكتبة العامة من حين إلى حين فيتخرج ويطلع نعله، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها في الدفوف

رأشت دار الحكم ودار العلم هذه للمعلمين وتلك للمتعلمين وفتحت فيهم محال المباطرة والمحاصرة، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء، وتنقل المباطرة أحياء إلى قصر الخليفة فيشرك فيها أو يشرف عليها، ويأذن لكل ذي رأي أن يذلي برأيه فيها، وإن خالف به إجماع الآراء

وشاعت بين العامة ثقافتهم التي ترصيههم من ملاحم التاريخ المشهور أو المبطوم، فلم يكن مجلس من محال السمرة العامة يخلو من القصصيين

وُ الشُعراء المشدّين، يسدّعون حمهرة اناس طرفاً من التاريخ الشعبى وانقصص
اشعبيه، عدّ محالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للفصحى المعاهد أو المساحد
من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء

وفى عهدهم أُصلحت الدواب وسطمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض
وهكروا فى بناء الخزان عند أسوان.

وتقدمت الفنون والصناعات، رتفس الفنانون والصناع فى هندسة البناء،
وفى النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة، وشوهدت رسوم على
النسيج تحاكي اللوحات العنمة فى دقة التصوير وجمال التلوين، وبلغ فن
التصوير البارز والتصوير العائر عاية ما يبلغه فى عصر من العصور، وصبغت
التماثيل من المعادن والحواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتحص أن تنظر قيمة
المعدن البعيس بفضل الصناعة ولإتقن

وقد ألف الوصفاءور إذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف
ليلة وليلة، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقوبة من ذخائر
القصر هى تلك انحصارة، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبدع من
نسخة الخيال.

وكانت التجارة مددا للصناعة لا يقطع ولا يرال يعطيها كلما أخذ منها
ويحدثها على التوسع والمريد تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند
والصين بالخامات وتعود ببدايع المصنوعات، أو تأتى ببدايع المصنوعات
وتعود بما هو أبداع وأغلى، دوايك فى مواسم انعام كله لا تنى داهية آتية على
مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم
الأرملة العابرة وأصافت إليها، فبعد إلغاء اسبوز عند مقدم الخليفة المعز إلى
القاهرة عادوا إلى الاحتفال به وأصافوا إليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد
وأعياد الربيع، وأحصى من مواسم العام غير رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد
النبي ومولد الإمام ومولد آل البيت، وليالى الوقود وهى بيال من رجب وشعبان
يحتفل بها قبل نوافل^(١) لصيام.

(١) نوافل. جمع نافلة، وهى عمل ما لا يجب عمله، كالصيام فى غير شهر الصيام.

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار، ولا سيما في شهر رمضان وليالي الأعياد، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسطة^(١) ويخرجوا إليه يحيريه ويتلقون منه التحية، وأصبح الواهدين إلى مصر يحسبونها أمة فرعت للمواكب والمفاصل والأسمار

ولم يكن قصارى ما في تلك المواكب أنها مظهر لهن وفراع تعطر منها الأعراس وتسى فيهن تكاليف المعيشة، بل هي كانت في حقيقتها معارص لتقوى والصناعات يسير فيها أصحاب كل من صناعة على نظام معلوم، ويتقدم كل طائفة بغيرها وأساتذتها يترمون بمفخر هوبهم وصناعاتهم ويعنون عنها ويدلون عليها، ومن هذه المواكب ما بقي إلى اليوم في زفة رمضان وزفة حبر البحر، ومن تلك لمحاقل ما بقي في طبة رحب ونصف شعبان وغيرها من ليالي الذكرى للأموال والبريرة للأحياء

لا حرم كاس مصر إبان هذه الحضارة ملتقى لرواد والقصاص، ولا حرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب سوي السلطان في كل زمان ومكان، وأولهم السياح والشعراء.

فما من راحة أحببه العالم الإسلامي لم يحد من مصر مقاما أو مرارا في تلك الأيام، وما من قصر من قصور الملك في المشرق والمغرب عمر في ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور لفاطمية من الشعراء والأدباء

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالإيجار لارحام القاه وكثرة المفاصل، وزادوهم في الحزاء لكيلا يقار به قصد في العطاء لا قصد في الثناء، فقال أحدهم ابن مفرج، يخاطب الخليفة الصافظ

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصر

لم لا أمرت مدى كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمى الذى قال

مداهبهم فى الجود مذهب سعة

وإن خالف قوسى فى اعتقاد التشيع

(١) الأسطة جمع ساط، وهو ما يعطى لوجه عليه التمام

وهو الذي بخر^(١) نفسه على أثارهم وأورد لها مورد الهلاك أملا في بصرتهم
واستعادة مجدهم، فهو أحق الناس برثائهم، ومصيدته التي قين فيها إبها أبلغ ما
بصر في رثاء دوله هي أحق ما يودع به عمرائهم المهجور

لهفي ولهف بنى الأمال قاطبة
على هجيمتها في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلاشها
من المكارم ما ربي على الأمل
مررت بالقصر والأركان خابيه
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منقذ
من الأعداء ووجهه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غدة خلت
رحابكم وعدت مهجورة السبل
بكى على ما قرأت من مكارمكم
حال السرمين عليها وهي لم تحل
دار الصيافة كانت أس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس في الفضلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان في يوم الحليج لكم
يأتى تحملكم فيه على الجمل
وأول السعام والسعيدين كان لكم
فيهن من ويل جود ليس بالوشل^(٢)

(١) بخر، بخر نفسه أهتكها

(٢) الوشل الماء القليل يتحلب من صخرة يقطر قليلا قليلا

والأرض تهتز في يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصرىكم من الأسل^(١)
والخيل تعرض في وشى وفي شية
مثل العرائس في حلى وفي حلل
وما حملتم قري الأضياف من سعة ألا
طباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذميتين وللض
يف المقيم وللطاري من الرسل
ثم الطراز بتئيس الذي عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخره
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبي لهم أبدا
ما أخـر الله لي في مدة الأجل
ولم يؤخر له في الأجل، فانقضى أجل الدولة في سنة سبع وستين وخمسمائة
وانقضى أجل شاعرها في سنة تسع وستين وخمسمائة.
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

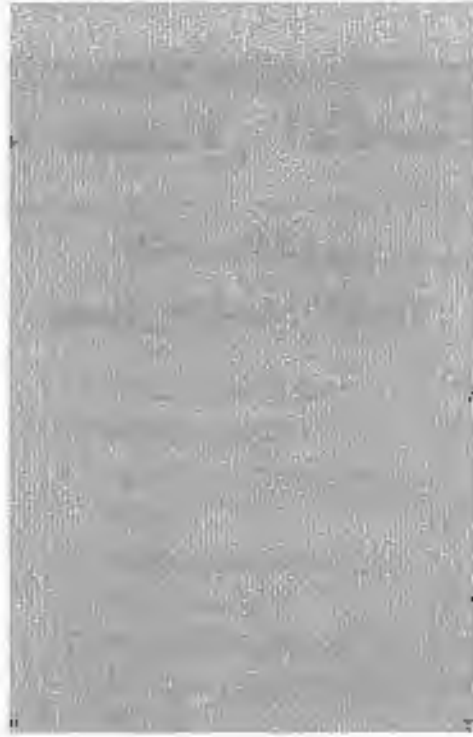
الفهرس

٢	تمهيد
٧	القسم الأول : فاطمة الزهراء
٩	أم الزهراء
١٧	نشأتها
٢١	زواجها
٢٢	بلاغتها
٢٩	فى الحياة العامة
٤٥	وفاتها
٥١	شخصية الزهراء
٥٥	الذرية الفاطمية
٥٩	القسم الثانى : ... والفاطميون
٦١	الفاطميون
٦٧	النسب
٧٧	الباطنية
٨٩	الباطنية الفاطمية
١٠٧	حسن بن الصباح
١٢٢	السرية الباطنية
١٢٧	بناة وهدامون - ومهدومون
١٣٧	المعز لدين الله
١٤٩	حضارة منحصرة

مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير عباس محمود العقاد

- | | | |
|---------------------------------|----------------------------------|--------------------------------|
| ١ - الله | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين. | ٥٦ - مع عامل للجزيرة الحربية |
| ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء. | ٣٠ - ما يقال عن الإسلام. | ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب |
| ٣ - مطلع النور لو طوانح البعثة | ٣١ - حقائق الإسلام وأساطيل | والسياسة. |
| المحموية. | خصومه. | ٥٨ - دراسات في المذاهب الأدبية |
| ٤ - عبقرية محمد ﷺ. | ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية. | والاجتماعية. |
| ٥ - عبقرية عمر. | ٣٣ - الفلسفة القرآنية. | ٥٩ - آراء في الأدب والفنون. |
| ٦ - عبقرية الإمام. | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام. | ٦٠ - بحوث في اللغة والأدب. |
| ٧ - عبقرية خالد. | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة | ٦١ - خواطر في الفن والقصة. |
| ٨ - حياة المسيح. | الأدبية. | ٦٢ - دين وفن وفلسفة. |
| ٩ - ثو الثورين عثمان بن عفان. | ٣٦ - الثقافة العربية. | ٦٣ - فنون وشجون. |
| ١٠ - عمرو بن العاص. | ٣٧ - اللغة الشاعرة. | ٦٤ - قيم ومعايير. |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان. | ٣٨ - شعراء مصر وهناتهم. | ٦٥ - الديوان في الأدب والنقد. |
| ١٢ - داعي السماء بلال بن رباح. | ٣٩ - أشتات مجتمعات في اللغة | ٦٦ - عيد الخلم. |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي. | والأدب. | ٦٧ - ردود وحدود. |
| ١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون. | ٤٠ - حياة قلم. | ٦٨ - ديوان بقطة الصباح |
| ١٥ - هذه الشجرة. | ٤١ - خلاصة اليومية والشذور. | ٦٩ - ديوان وهج الظهيرة. |
| ١٦ - إبليس. | ٤٢ - مذهب ذوي العمامات. | ٧٠ - ديوان أشباح الأصيل. |
| ١٧ - جحا الضاحك المضحك. | ٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار. | ٧١ - ديوان وحى الأربعين. |
| ١٨ - أبو نولس. | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية. | ٧٢ - ديوان هدية الكروان. |
| ١٩ - الإنسان في القرآن. | ٤٥ - الصهيونية العالمية. | ٧٣ - ديوان غابر سبيل. |
| ٢٠ - المرأة في القرآن. | ٤٦ - نسوان. | ٧٤ - ديوان أعاصير مغرب. |
| ٢١ - عبقري الإصلاح والتعليم | ٤٧ - أنا. | ٧٥ - ديوان بعد الأعاصير. |
| الإمام محمد عبده. | ٤٨ - عبقرية الصديق. | ٧٦ - عرائس وشياطين. |
| ٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة. | ٤٩ - الصديقة بنت الصديق. | ٧٧ - ديوان أشجان الليل. |
| ٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندي. | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية. | ٧٨ - ديوان من دواوين. |
| ٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي. | ٥١ - مجمع الأحياء. | ٧٩ - هتلر في المهزلن. |
| ٢٥ - رجعة أبي العلاء. | ٥٢ - الحكم المطلق. | ٨٠ - أفيون الشعوب. |
| ٢٦ - رجال عرفتهم. | ٥٣ - يوميات (الجزء الأول). | ٨١ - القرن العشرون ما كان وما |
| ٢٧ - سارة. | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني). | سيكون. |
| ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية. | ٥٥ - عالم السدود والقيود. | ٨٢ - النازية والأديان. |



احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع: www.enahda.com

